المغني في التفسير

المُحَرِّرُ الجَامِعُ لِتفَاسِيرِ السَّلَفِ

[تَهْذِيبُ التَّفْسِيرِ المُحَرَّرِ لِلدُّرَرِ السَّنِيَّةِ]

[مُطَرَّزًا بِحَاشِيَةٍ مِنْ تَحْرِيرَاتٍ وَتَرْجِيحَاتٍ وَتَعْلِيقَاتِ عُيُونِ تَفَاسِيرِ المُحَقِّقِينَ فِي التَّفْسِيرِ:

{ابْنِ جَرِيرٍ، وَابْنِ عَطِيَّةَ، وَابْنِ تَيْمِيَّةَ، وَابْنِ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ، وَابْنِ كَثِيرٍ، رَحِمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى}

كَتَبَهُ وَاعْتَنَى بِهِ

د/ هَانِي بْن عَبْده

د/ آلَاء رِضَا

«المُغْنِي فِي التَّفْسِيرِ»

المُحرِّرُ الجَامِعُ لِتفَاسِيرِ السَّلَفِ

[تَهْذِيبُ التَّفْسِيرِ المُحَرَّرِ لِلدُّرَرِ السَّنِيَّةِ]

[مُطَرَّزًا بِحَاشِيَةٍ مِنْ تَحْرِيرَاتٍ وَتَرْجِيحَاتٍ وَتَعْلِيقَاتِ عُيُونِ تَفَاسِيرِ المُحَقِّقِينَ فِي التَّفْسِيرِ:

{ابْنِ جَرِيرٍ، وَابْنِ عَطِيَّةَ، وَابْنِ تَيْمِيَّةَ، وَابْنِ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ، وَابْنِ كَثِيرٍ، رَحِمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى}

مُقْتَبَسَةً مِنْ مُوسُوعَةِ التَّفْسِيرِ المَأْثُورِ

كَتَبَهُ وَاعْتَنَى بِهِ

د/ هَانِي بْنُ عَبْدِهِ

د/ آلَاء رِضَا

غَفَرَ اللَّهُ لَهُمَا وَلِوَالِدَيْهِمَا وَلِمَشَايِخِهِمْ وَلِلْمُسْلِمِينَ

بسم الله الرحمن الرحيم

«المُغْنِي فِي التَّفْسِيرِ»

المُحَرِّرُ الجَامِعُ لِتَفَاسِيرِ السَّلَفِ

سُورَةُ غافِرٍ

(المجلَّدُ الثَّلاثونَ)

"هَذِهِ مُسْوَدَّةُ نُسْخَةٍ إِلِكْتْرُونِيَّةٍ، جَمِيعُ حُقُوقِهَا مَحْفُوظَةٌ لِلْمُؤَلِّفِ.
لَا يُسْمَحُ بِنَشْرِهَا أَوْ تَدَاوُلِهَا إِلَّا بِإِذْنٍ كِتَابِيٍّ صَرِيحٍ مِنَ الْمُؤَلِّفِ."

نسخة إلكترونية

تَفْسِيرُ
سُورَةِ غافِرٍ

سُورةُ غافِرٍ

سورةُ غافِرٍ

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ: غافِرٍ،[1] وسُورةِ المُؤمِنِ.[2]

سورةُ غافِرٍ هي أوَّلُ السُّوَرِ السَّبْعِ الَّتي تَبدَأُ بقَولِه تعالى: حم، ويُطلَقُ على هذه السُّورِ (الحواميم).[3]

سورةُ غافِرٍ مَكِّيَّةٌ، وحُكِيَ الإجماعُ على ذلك.[4]

---

(1) سُمِّيَت هذه السُّورةُ بهذا الاسمِ؛ لذِكْرِه في أوَّلِها؛ قال ابنُ عاشور: (تُسمَّى سورةَ غافِرٍ؛ لذِكرِ وَصْفِه تعالى: غَافِرِ الذَّنْبِ [غافر: 3] في أوَّلِها، وبهذا الاسمِ اشتَهَرتْ في مَصاحِفِ المغربِ).

((تفسير ابن عاشور)) (75/24).

(2) سُمِّيَت بهذا الاسمِ؛ لاشتِمالِها على حديثِ مُؤمِنِ آلِ فِرعَونَ.

يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (409/1).

قال ابنُ عاشور: (وبذلك اشتَهَرت في مصاحفِ المَشرِقِ، وبذلك تَرجَمها البخاريُّ في «صحيحِه»، والتِّرمذيُّ في «الجامعِ»).

((تفسير ابن عاشور)) (75/24).

ويُنظر: ((صحيح البخاري)) (126/6)، ((سنن الترمذي)) (374/5).

(3) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (255/12).

والحواميم هي: (غافر)، و(فصلت)، و(الشورى)، و(الزخرف)، و(الدخان)، و(الجاثية)، و(الأحقاف)، ويقالُ لها أيضًا: (ذوات حم)، و(آل حم).

يُنظر: ((الصحاح)) للجوهري (1907/5)، ((الإتقان)) للسيوطي (224/1).

(4) ذكر ابنُ عطية (٧/ ٤١٨) أن هذه السورة مكية بإجماع، ثم نقل قولًا بمدنية بعض آياتها، وانتقده، ورجَّح الأول، فقال: «وذلك ضعيف، والأول أصح».

من أهم مقاصد هذه السورة:

إبطالُ جَدَلِ الَّذينَ يُجادِلونَ في آياتِ اللهِ.

من أهم موضوعات هذه السورة:

1- افتِتاحُ السُّورةِ بالثَّناءِ على اللهِ تعالى.

2- تَسليةُ الرَّسولِ - ﷺ - عمَّا لَقِيَه مِن المُشرِكينَ.

3- بيانُ وظيفةِ الملائِكةِ الَّذين يَحمِلونَ العَرشَ، وأنَّ منها الاستِغفارَ للمُؤمِنينَ، والدُّعاءَ لهم.

4- دَعوةُ العِبادِ إلى إخلاصِ الطَّاعةِ له، وتَذكيرُهم بأهوالِ يومِ القيامةِ، وأنَّ المُلْكَ في هذا اليومِ لله وَحْدَه.

5- ذِكرُ جانبٍ مِن قِصَّةِ موسى عليه السَّلامُ مع فِرعَونَ وهامانَ وقارونَ، وما وَعَظ به الرَّجُلُ المؤمِنُ مِن آلِ فِرعَونَ قَومَه.

6- حِكايةُ جانبٍ مِن المُحاوَراتِ الَّتي تَدورُ بيْنَ الضُّعَفاءِ والمتكَبِّرينَ في النَّارِ، وما يَقولونَه لِخَزَنةِ جَهنَّمَ.

7- التَّنبيهُ على دَلائلِ تفرُّدِ اللهِ تعالى بالإلهيَّةِ إجمالًا، وإبطالُ عبادةِ ما يَعبُدونَ مِن دونِ اللهِ.

ولم يذكر مستندًا.

8- ذِكرُ ألوانٍ مِن نِعَمِ اللهِ على النَّاسِ؛ لكي يَشكُروه عليها.

9- الحَديثُ عن الَّذينَ يُجادِلونَ في آياتِ اللهِ بغيرِ عِلمٍ، وتوبيخُهم وتهديدُهم بسُوءِ المصيرِ، وأمْرُ النَّبيِّ - ﷺ - بالصَّبرِ على أذاهم، مع تذكيرِه بأحوالِ الرُّسُلِ السَّابِقينَ مع أقوامِهم.

10- إنذارُ مُشرِكي مكَّةَ بأنَّ مَصيرَهم سيَكونُ كمَصيرِ مَن قَبْلَهم مِمَّن أشرك، وذلك في حالِ بقائِهم على كُفرِهم، وأنَّهم إذا نزَل بهم عذابُ اللهِ فلن يَنفَعَهم الإيمانُ حينَئذٍ.

سورةُ غافرٍ

الآيات (1–3)

حم (1) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (2) غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ (3)

غريب الكلمات:

التَّوْبِ: أي: التَّوبةِ، وهو مصدرُ تابَ يَتوبُ، والتَّوبُ: ترْكُ الذَّنْبِ على أجمَلِ الوُجوهِ، وقيلَ: التَّوبُ جمعُ تَوبةٍ، وأصلُ (توب): يدُلُّ على الرُّجوعِ.

الطَّوْلِ: أي: القُدرةِ والغِنى والفَضلِ، وأصلُ (طول): يدُلُّ على فَضلٍ وامتِدادٍ في شَيءٍ.

تفسير الآيات:

حم (1).

هذانِ الحرفانِ مِن الحروفِ المُقطَّعةِ الَّتي افتُتِحَتْ بها بعضُ سُوَرِ القرآنِ الكريمِ؛ لبيانِ إعجازِ هذا القرآنِ؛ حيثُ تُظهِرُ عجزَ الخَلْقِ عن مُعارَضَتِه بمِثلِه، مع أنَّه مركَّبٌ مِن هذه الحروفِ العربيَّةِ الَّتي يَتحدَّثونَ بها.

تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (2).

أي: تَنزيلُ القُرآنِ مِن عندِ اللهِ القاهِرِ الغالِبِ، المَنيعِ الجَنابِ، الممتنعِ عن كلّ نقصٍ وعيبٍ، ذي القدرِ والسيادةِ؛ العليمِ الَّذي أحاط عِلمُه بكُلِّ شَيءٍ.

غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ (3).

غَافِرِ الذَّنْبِ.

أي: سَاتِرِ ذُنوبِ عبادِه، ومُتجاوِزٍ عن مُؤاخَذتِهم بها.

وَقَابِلِ التَّوْبِ.

أي: وقابِلِ توبةِ التَّائِبينَ مِن الشِّرك وجَميعِ المعاصي.

كما قال الله تعالى: وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ [الشورى: 25].

وعن ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما، عن النَّبيِّ – ﷺ –، قال: ((إنَّ اللهَ يَقبَلُ تَوبةَ العَبدِ ما لم يُغَرْغِرْ))[5].[6]

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسولُ اللهِ – ﷺ –: ((مَن تابَ قبلَ أنْ تطلُعَ الشَّمسُ مِن مغربِها، تابَ الله عليه)).[7]

شَدِيدِ الْعِقَابِ.

أي: شديدِ العِقابِ لِمَن يَستحِقُّ مِن عِبادِه.

كما قال تعالى: وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ [المائدة: 2].

---

(5) أي: ما لم تَبلُغْ رُوحُه حُلقومَه، فيكون بمنزلةِ الشَّيءِ الَّذي يتغرغَرُ به المريضُ.
يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (360/3).
(6) رواه الترمذيُّ (3537)، وابن ماجه (4253)، وأحمد (6160).
قال الترمذيُّ: (حسَنٌ غريبٌ).
وقال ابن القطَّان في ((الوهم والإيهام)) (412/5): (محتملٌ أن يُقال فيه: صحيحٌ).
وصحَّح إسنادَه أحمد شاكر في تحقيق ((مسند أحمد)) (18/9)، وحسَّن الحديثَ الألبانيُّ في ((صحيح سنن الترمذي)) (3537).
(7) رواه مسلم (2703).

وقال سُبحانَه: نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ [الحجر: 49، 50].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ – ﷺ – قال: ((لو يَعلَمُ المؤمِنُ ما عندَ اللهِ مِن العُقوبةِ ما طَمِعَ بجَنَّتِه أحَدٌ، ولو يَعلَمُ الكافِرُ ما عندَ اللهِ مِن الرَّحمةِ ما قَنَط مِن جنَّتِه أحَدٌ)).[8]

ذِي الطَّوْلِ.

أي: صاحبِ الغنَى الواسِعِ، والفَضلِ والإنعامِ على خَلْقِه.

كما قال تعالى: وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا [إبراهيم: 34].

وقال سُبحانَه: أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً [لقمان: 20].

لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ.

أي: لا مَعبودَ حَقٌّ إلَّا اللهُ وَحْدَه دونَ ما سِواه.

---

(8) رواه البخاري (6469)، ومسلم (2755) واللفظ له.

إِلَيْهِ الْمَصِيرُ.

أي: إلى اللهِ وَحْدَه مَرجِعُ العِبادِ، فيُجازيهم بأعمالِهم؛ خَيرِها وشَرِّها.(9)

(9) وممَّن قال بأنَّ المرادَ بالمصيرِ إلى الله تعالى: الرُّجوعُ إليه يومَ القيامةِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ كثير، والشوكاني، والسعدي، وابن عاشور.

يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (3/705)، ((تفسير ابن كثير)) (7/128)، ((تفسير الشوكاني)) (4/552)، ((تفسير السعدي)) (ص: 731)، ((تفسير ابن عاشور)) (24/81).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عُمرَ.

يُنظر: ((الدر المنثور)) للسيوطي (7/272).

وقيل: المرادُ: إليه المرجِعُ في كُلِّ شَيءٍ في الدُّنيا والآخرةِ، كالحُكمِ بيْنَ النَّاسِ، وتدبيرِ الأمورِ؛ وإليه المرجِعُ بعدَ الموتِ.

وممَّن ذهب إلى هذا العموم: ابنُ عثيمين.

يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: 50).

ويُنظر أيضًا: ((نظم الدرر)) للبقاعي (17/7).

سورةُ غافِرٍ

الآيات (4–6)

مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ (4) كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ
نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ
الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ (5) وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ
أَصْحَابُ النَّارِ (6)

غريب الكلمات:

يَغْرُرْكَ: أي: يَخدَعْك، والغِرَّةُ: غفلةٌ في اليقظةِ، وأصلُ (غرر) هنا: نُقصانٌ.

تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ: أي: تَصرُّفُهم في البلادِ، وتَردُّدُهم في أسفارِهم سالِمينَ، وأصلُ (قلب): يدُلُّ على رَدِّ شَيءٍ مِن جِهةٍ إلى جِهةٍ.

وَالْأَحْزَابُ: أي: الأُممُ الَّذين تحزَّبوا وتجمَّعوا على رُسلِهم بالتَّكذيبِ، مِن قَولِهم: تحزَّبَ القَومُ: إذا اجتَمَعوا، وأصلُ (حزب): يدُلُّ على تَجمُّعِ الشَّيءِ.

وَهَمَّتْ: الهمُّ: جَرَيانُ الشَّيءِ في القلبِ، وأصلُ (همم): يدُلُّ على ذَوْبٍ وجَرَيانٍ ودَبيبٍ وما أشْبَهَ ذلك.

لِيُدْحِضُوا: أي: لِيُبطِلوا ويُذهِبوا، وأصلُ (دحض): يدُلُّ على زَوالٍ.

حَقَّتْ: أي: وجَبَتْ ولَزِمَتْ، والحَقُّ في أصلِه: المُطابَقةُ والموافَقةُ، وأصلُ (حقق): يدُلُّ على إحكامِ الشَّيءِ وصِحَّتِه.

تفسير الآيات:

مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ (4).

مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا.

أي: ما يُجادِلُ بالباطِلِ في آياتِ اللهِ الدَّالَّةِ على الحَقِّ إلَّا الكافِرونَ الَّذين يَرُدُّونَها، ويَطعُنونَ فيها، يَقصِدونَ إدحاضَ الحَقِّ، وإطفاءَ نُورِ اللهِ تعالى.

كما قال الله تعالى: وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ [الكهف: 56].

فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ.

أي: فلا يَخدَعْك -يا مُحَمَّدُ- تصَرُّفُ الكُفَّارِ في الأرضِ، وتَردُّدُهم فيها بالأسفارِ وأنواعِ المكاسِبِ وغَيرِها، وتمتُّعُهم في الدُّنيا سالِمينَ مع كُفرِهم باللهِ؛ فتظُنَّ بهم ظَنًّا حَسَنًا، وأنَّهم على الحَقِّ، أو أنَّ اللهَ لا يُؤاخِذُهم بذُنوبِهم؛ فاللهُ عالِمٌ بحالِهم، فيُمهِلُهم ويَستَدرِجُهم بالنِّعَمِ حتَّى يُهلِكَهم.[10]

(10) ذكر ابنُ عطية (٧/ ٤٢٢) أن قوله: ﴿فَلا يَغْرُرْكَ﴾ أنزله منزلة: فلا يحزنك ولا يهمنّك. لتدل الآية على أنهم ينبغي أن لا يغتروا بإملاء الله تعالى لهم، فالخطاب له – ﷺ –، والإشـــارة إلى مَن يقع منه الاغترار، ثم أورد احتمالًا آخر، فقال: «ويُحتمل أن يكون ﴿يَغْرُرْكَ﴾ بمعنى: تظن أن وراء تقلّبهم وإمهالهم خيرًا لهم، فتقول: عســـى أن لا يُعذّبوا».

كما قال تعالى: لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ * مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ [آل عمران: 196، 197].

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ (5).

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ.

أي: كذَّبت الأُمَمُ الماضيةُ رُسُلَها مِن قَبْلِ كُفَّارِ قُرَيشٍ، وهم قَومُ نُوحٍ، ومَنْ بَعْدَهم مِنَ الأُمَمِ المكَذِّبةِ مِمَّن تحَزَّبوا واتَّفقوا على إبطالِ الحَقِّ، ونَصرِ الباطِلِ؛ كعادٍ، وثمودَ، وقَومِ لُوطٍ، وأصحابِ مَدْيَنَ، وقَومِ فِرعَونَ.

وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ.

أي: وهَمَّ كُلُّ قَومٍ مِن أولئك الكُفَّارِ المتحَزِّبِينَ مِن تلك الأُمَمِ بقَتلِ رَسولِهم الَّذي كَذَّبوه.

كما قال تعالى: وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ [الأنفال: 30].

وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ.

أي: وجادَلوا رَسولَهم بالباطِلِ؛ لِيُزيلوا به الحَقَّ ويُبطِلوه.

فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ.

أي: فأخَذْتُهم بعَذابٍ أهلَكَهم، فكيف كان عِقابي الَّذي أصابَهم؟

كما قال تعالى: فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ [العنكبوت: 40].

وقال سُبحانَه: وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ [الملك: 18].

وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ (6).

أي: وكما وَجَب العَذابُ على كُفَّارِ الأُمَمِ الماضيةِ، كذلك وَجَب العَذابُ على جَميعِ الكُفَّارِ؛ أنَّهم الملازِمونَ في الآخِرةِ عَذابَ النَّارِ.

كما قال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ [يونس: 96، 97].

سورةُ غافِرٍ

الآيات (7–9)

الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا
رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ
(7) رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ
أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (8) وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ
الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (9)

غريب الكلمات:

عَدْنٍ: أي: إقامةٍ واستِقرارٍ وثباتٍ، وأصلُ (عدن): يدُلُّ على الإقامةِ.

وَذُرِّيَّاتِهِمْ: الذُّرِّيَّةُ: الأولادُ وأولادُ الأولادِ، فهي اسمٌ يَجمعُ نَسْلَ الإنسانِ مِن ذَكَرٍ وأُنثَى، قيل: أصلُها مِن (ذرأ)، أي: خلَق؛ لأنَّها خلْقُ الله، وحُذِفت الهمزةُ منها، وقيل: أصلُها مِن الذَّرِّ، بمعنَى التَّفريقِ؛ لأنَّ اللهَ تعالى ذَرَّهم في الأرضِ.

تفسير الآيات:

الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (7).

الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ.

أي: الملائِكةُ الَّذين يَحمِلونَ عَرشَ الرَّحمنِ والملائِكةُ المُقَرَّبونَ الَّذين يَحُفُّونَ بالعَرشِ يُنَزِّهون رَبَّهم عن النَّقائِصِ تَنزيهًا مُقتَرِنًا بوَصفِه بصِفاتِ الكَمالِ؛ مَحَبَّةً وتعظيمًا، ويُؤمِنونَ برَبِّهم، فيُقِرُّون بُوجودِه ورُبوبيَّتِه وألوهيَّتِه، وأسمائِه وصِفاتِه، ويُقِرُّونَ بأنَّه الإلهُ المُستَحِقُّ للعبادةِ وَحْدَه؛ فلا يَستَكبِرونَ عن عِبادتِه.

قال الله سُبحانَه وتعالى: وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ [الحاقة: 17].

وعن جابِرِ بنِ عبدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عنهما، عن النَّبيِّ - ﷺ -، قال: ((أُذِنَ لي أن أُحدِّثَ عن مَلَكٍ من مَلائِكةِ اللهِ مِن حَمَلةِ العَرشِ: إنَّ ما بيْنَ شَحمةِ أُذُنِه إلى عاتِقِه مَسيرةُ سَبعِمِئةِ عامٍ!)).(11)

---

(11) أخرجه أبو داودَ (4727) واللَّفظُ له، والطبراني في ((المعجم الأوسط)) (4421) بلفظ: ((سبعين))، والبيهقي في ((الأسماء والصفات)) (846).

صَحَّح إسنادَه الذهبيُّ في ((العلو)) (ص: 97)، وشعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((سنن أبي داود)) (4727)، وجوَّده ابنُ كثير في ((تفسير القرآن)) (8/239)، وقال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (1/80): (رجالُه رجالُ الصَّحيحِ).

وقال ابنُ حجر في ((فتح الباري)) (8/533): (إسنادُه على شرط الصَّحيحِ).

وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا.

أي: ويَطلُبونَ مِن اللهِ المَغفرةَ للَّذين آمَنوا بما يجِبُ الإيمانُ به، وأقَرُّوا بوَحدانيَّةِ اللهِ، وتبَرَّؤوا مِن كُلِّ مَعبودٍ سِواه.

كما قال الله سبحانَه وتعالى: وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ [الشورى: 5].

رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا.

أي: تَقولُ الملائِكةُ: يا رَبَّنا وَسِعَتْ رَحمتُك كُلَّ شَيءٍ، ووَسِعَ عِلمُك كُلَّ شَيءٍ، فما مِن شَيءٍ إلَّا شَمِلَتْه رحمتُك، ونالَه منها حَظٌّ ونصيبٌ، وأحاطَ به عِلمُك.

فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ.

أي: فاستُرِ الذُّنوبَ وتجاوَزْ عن المؤاخَذةِ بها: للَّذين تابوا مِنَ الشِّركِ والمعاصي، والتَزَموا بما شرَعْتَه مِن دينِ الإسلامِ، فوَحَّدوك وعَمِلوا بما أمَرْتَهم به، وانتَهَوا عمَّا نَهَيْتَهم عنه.

وصَحَّح الحديثَ الألبانيُّ في ((صحيح سنن أبي داود)) (4727).

وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ.

أي: واصرِفْ عنهم عذابَ النَّارِ يومَ القيامةِ.

رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (8).

رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ.

أي: يا ربَّنا وأدخِلِ الَّذين تابُوا واتَّبَعوا سَبيلَك جنَّاتِ عَدْنٍ الَّتي وعَدْتَهم بإدخالِهم إيَّاها.

كما قال تعالى: إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا * جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا * لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا * تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا [مريم: 60 – 63].

وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ.

أي: وأدخِلْ جنَّاتِ عَدْنٍ أيضًا مَنْ صَلَح في الدُّنيا مِن آبائِهم وأزواجِهم وذُرِّيَّاتِهم، فآمَنَ وعَمِلَ الصَّالحاتِ.

كما قال الله تعالى: جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ [الرعد: 23].

وقال سُبحانَه: وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ [الطور: 21].

إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ.

أي: إنَّك أنت العزيزُ الَّذي لا يُغالَبُ، ولا يُرامُ جَنابُه، فأنت ذو القَدْرِ والسِّيادةِ، الغالِبُ القاهِرُ لكُلِّ شَيءٍ، المُمتَنِعُ عليه كُلُّ عَيبٍ ونَقصٍ؛ الحكيمُ في شَرْعِك وقَدَرِك وتدبيرِ خَلْقِك، فتَضَعُ كلَّ شَيءٍ في مَوضِعِه اللَّائِقِ به.

وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (9).

وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ.

أي: واحفَظِ المؤمِنينَ الَّذين تابوا واتَّبَعوا سَبيلَك مِمَّا يَسوؤُهم، مِنِ ارتِكابِ الأعمالِ السَّيِّئةِ، وعُقوباتِها الَّتي تَسوءُ أصحابَها.(12)

---

(12) ذكر ابنُ عطية (٧/ ٤٢٥) أن قوله: ﴿وقِهِمُ﴾ معناه: اجعل لهم وقاية تقيهم السَّـيِّئاتِ، ثم ذكر احتمالين آخرين: الأول: أن يكون الدعاء في أن يدفع الله عنهم نفس السيئات حتى لا ينالهم عذاب من أجلها.

الثاني: أن يكون الدعاء في رفْع العذاب اللاحق من السـيئات، فيكون في اللفظ –على هذا– حذف مضـاف، كأنه قال: وقهم جزاء السيئات.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (286/20)، ((تفسير القرطبي)) (296/15)، ((تفسير ابن كثير)) (132/7)، ((تفسير السعدي)) (ص: 732)، ((تفسير ابن عاشور)) (93/24).

قال ابنُ جُزَي: (يحتمِلُ أن يكونَ المعنى: قِهِمُ السَّـيِّئاتِ نَفْسَـها، بحيثُ لا يَفعَلونَها، أو يكونَ المعنى: قِهِمْ جزاءَ السَّـيِّئاتِ، فلا تُؤاخِذْهم بها).

وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ.

أي: ومَن تَصْرِفْ عنه سوءَ عاقِبةِ سَيِّئاتِه يومَ القيامةِ فقد رَحِمْتَه بالنَّجاةِ مِن عَذابِك، ودُخولِ جنَّتِك.

((تفسير ابن جزي)) (2/228).

وبنحوِه قال ابنُ كثير، والبِقاعي.

يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (7/132)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (17/16).

واختار مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ أنَّ المرادَ بالسَّيِّئاتِ: الشِّرْكُ.

يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (3/707).

وممَّن قال بالمعنى الثَّاني، وهو وِقايَتُهم عاقِبةَ السَّيِّئاتِ وهو العذابُ: ابنُ جرير، والسمرقندي، والثعلبي، والنسفي، وابن عثيمين.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (20/286)، ((تفسير السمرقندي)) (3/199)، ((تفسير الثعلبي)) (8/268)، ((تفسير النسفي)) (3/201)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: 111، 112).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (20/287).

وممَّن جمَع بيْن المعنيَين -أي: قِهِمُ الأعمالَ السَّيِّئةَ وجزاءَها-: ابنُ القيِّم، والسعدي.

يُنظر: ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: 115)، ((تفسير السعدي)) (ص: 732).

قال ابنُ القيِّم: (وِقايةُ السَّيِّئاتِ نَوعانِ؛ أحدُهما: وِقايةُ فِعلِها بالتَّوفيقِ فلا تَصدُرُ منه. والثَّاني: وقايةُ جزائِها بالمَغفرةِ فلا يُعاقَبُ عليها، فتضَمَّنَتِ الآيةُ سُؤالَ الأمْرَين).

((الجواب الكافي)) (ص: 115).

وقال ابن عاشور: (السَّيِّئاتُ هنا جمْعُ سَيِّئةٍ، وهي الحالةُ أو الفَعلةُ الَّتي تَسوءُ مَن تعلَّقَت به، مِثلُ ما في قَولِه تعالى: فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا [غافر: 45]، وقَولِه تعالى: وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ [الأعراف: 131]...

والمرادُ: إبلاغُ هؤلاء المؤمنينَ أعلى درجاتِ الرِّضا والقَبولِ يومَ الجزاءِ، بحيث لا ينالُهم العذابُ، ويَكونونَ في بُحبوحةِ النَّعيم، ولا يَعتريهم ما يُكدِّرُهم مِن نحوِ التَّوبيخِ والفضيحةِ).

((تفسير ابن عاشور)) (24/93، 94).

وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ.

أي: والنَّجاةُ مِن النَّارِ ودُخولُ الجنَّةِ في الآخرةِ هو الفوزُ الكبيرُ الَّذي لا فَوْزَ مِثلُه.

كما قال الله تعالى: فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ [آل عمران: 185].

وقال سُبحانَه: يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ [التغابن: 9].

سورةُ غافرٍ

الآيات (10–14)

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ (10) قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ (11) ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ (12) هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ (13) فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (14)

غريب الكلمات:

لَمَقْتُ: **المَقتُ: البُغضُ الشَّديدُ.**

يُنِيبُ: **أي: يَرجِعُ ويَتوبُ، وأصلُ (نوب): يدُلُّ على رُجوعٍ.**

تفسير الآيات:

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ (10).

أي: إنَّ الكافرين يُنادَونَ وهم في النَّارِ يُعذَّبونَ: لَبُغْضُ اللهِ الشَّديدُ لكم في الدُّنيا حينَ كُنتُم تُدْعَونَ فيها إلى الإيمانِ، فتَكفُرونَ- أعظَمُ مِن بُغضِكم الشَّديدِ اليَومَ لأنفُسِكم.

كما قال تعالى: وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا [فاطر: 39].

قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ (11).

قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ.

أي: قال أولئك الكافِرونَ مِن أهلِ النَّارِ: يا رَبَّنا أَمَتَّنا مَوتَتَينِ اثنتَينِ -حينَ كانوا نُطَفًا قبْلَ نَفخِ الرُّوحِ فيهم، ثمَّ عندَ انتهاءِ آجالِهم في الدُّنيا-، وأحيَيْتَنا إحيائَتَينِ اثنتَينِ، بنَفخِ الرُّوحِ فيهم في الدُّنيا، وحينَ بَعثِهم يومَ القيامةِ.(13)

---

(13) اختُلف في قوله تعالى: ﴿قالوا ربّنا أمتّنا اثنتين وأحييتنا اثنتين﴾ على أقوال: الأول: أنه خلَقهم أمواتًا في أصلاب آبائهم، ثم أحياهم بإخراجهم، ثم أماتهم عند انقضاء آجالهم، ثم أحياهم للبعث.

الثاني: أنه أحياهم نسمًا عند أخْذ العهد عليهم وقت أخذهم من صلب آدم – عليه السلام –، ثم أماتهم بعد ذلك، ثم أحياهم في الدنيا، ثم أماتهم، ثم أحياهم.

الثالث: أنه أحياهم في الدنيا، ثم أماتهم، ثم أحياهم في القبر وقت سؤال منكر ونكير، ثم أماتهم فيه، ثم أحياهم في الحشر.

كما قال تعالى: كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ [البقرة: 28].

فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا.

أي: فأقرَرْنا بما اقترَفْناه مِنَ الذُّنوبِ في الدُّنيا.

كما قال تعالى: وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ * فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ [الملك: 10، 11].

فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ.

أي: فهل مِن طَريقٍ أو وَسيلةٍ للخُروجِ مِن النَّارِ؟

وانتقد ابنُ عطية (٧/ ٤٢٦) القول الثاني الذي قاله ابن زيد، والثالث الذي قاله السُّدّيّ، -مستندًا لظاهر الآية- وذلك أن الإحياء فيهما ثلاث مرّات.

وبنحوه قال ابنُ كثير (١٢/ ١٧٦).

ورجَّح ابنُ عطية القول الأول الذي قاله ابن مسعود، وابن عباس، وقتادة، والضَّحّاك، وأبو مالك، والكلبي، فقال: «والأول أثبت الأقوال».

ولم يذكر مستندًا.

وكذا رجَّحه ابنُ تيمية (٥/ ٤٣١) مستندًا إلى النظائر، فقال: «والصحيح أن هذه الآية كقوله: ﴿وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم﴾ [البقرة: ٢٨]، فالموتة الأولى قبل هذه الحياة، والموتة الثانية بعد هذه الحياة، وقوله تعالى: ﴿ثم يحييكم﴾ بعد الموت: قال تعالى: ﴿منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى﴾ وقال: ﴿قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون﴾ [الأعراف: ٢٥]».

وبنحوه قال ابنُ كثير (١٢/ ١٧٦).

ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ (12).

ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا.

أي: فأُجيبوا بأنَّه لا سَبيلَ لكم للخروجِ مِن النَّارِ؛ لأنَّكم كنتُم في الدُّنيا إذا دُعِيَ اللهُ وَحْدَه كفَرْتُم بوَحدانيَّتِه، وإن يُجعَلْ له شَريكٌ في عبادتِه تُؤمِنوا بالشِّركِ![14]

كما قال تعالى: إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ * وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ [الصافات: 35، 36].

وقال عزَّ وجلَّ: وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ [الزمر: 45].

وقال سُبحانَه: وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ [الأعراف: 146].

---

(14) ذكر ابنُ عطية (٧/ ٤٢٧) أن قوله تعالى: ﴿ذلِكُمْ بأنه﴾ يحتمل احتمالات عدة: الأول: أن يكون إشـــارة إلى العذاب الذي هم فيه.

الثاني: أن يكون إشارة إلى مقْت الله إياهم.

الثالث: أن يكون إشارة إلى مقْتهم أنفسهم.

الرابع: أن تكون إشارة إلى المنع والزجر والإهانة المقدّرة محذوفة الذكر؛ لدلالة ظاهر القول عليها.

ذكر ابنُ عطية (٧/ ٤٢٧) أن المخاطبة بقوله تعالى: ﴿ذلِكُمْ بأنه إذا دُعِيَ اللَّهُ وحْدَهُ كَفَرْتُمْ﴾ تحتمل احتمالين: الأول: أن تكون المخاطَبة لمعاصري محمد – ﷺ – في الدنيا.

الثاني: أن تكون في الآخرة للكفار عامة.

فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ.

أي: فالقَضاءُ العادِلُ بيْنَ العِبادِ للهِ وَحْدَه العَليِّ الذَّاتِ والقَدْرِ والصِّفاتِ؛ القاهِرِ لكُلِّ شَيءٍ، العَليِّ عن أن يكونَ له شَريكٌ؛ الكبيرِ، ذي الكِبرياءِ والعَظَمةِ في ذاتِه وأسمائِه وصِفاتِه وأفعالِه؛ فكُلُّ شَيءٍ دُونَه مُتصاغِرٌ له.

كما قال تعالى: وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا [الكهف: 26].

هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ (13).

هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ.

أي: اللهُ وَحْدَه الَّذي يُريكم –أيُّها النَّاسُ– آياتِه الدَّالَّةَ على وحدانيَّتِه وقُدرتِه، وكَمالِ صِفاتِه وأفعالِه.

كما قال تعالى: هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ [الرعد: 12].

وقال سُبحانَه: اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ * وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ [غافر: 79 – 81].

وقال عزَّ وجلَّ: سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ [فصلت: 53].

وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا.

أي: ويُنَزِّلُ اللهُ لأجْلِكم -أيُّها النَّاسُ- رِزقًا مِنَ السَّماءِ.

قال تعالى: وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ [الجاثية: 5].

وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ.

أي: وما يَتذكَّرُ بالآياتِ فيَعتَبِرُ ويَتَّعِظُ حينَ يُذكَّرُ بها إلَّا مَن يُنيبُ إلى اللهِ تعالى بالرُّجوعِ عن الكُفرِ والشِّركِ والمعاصي، إلى الإيمانِ والتَّوحيدِ والطَّاعةِ، والإقبالِ على محبَّتِه وخَشيتِه، والتَّضرُّعِ إليه.

فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (14).

أي: فادعُوا اللهَ وَحْدَه مُخلِصينَ له، غيرَ مُشركِينَ به شَيئًا في كُلِّ حالٍ، حتَّى في حالِ كَراهةِ الكافِرينَ إفرادَكم العبادةَ للهِ وَحْدَه.

كما قال تعالى: فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ [الزمر: 2].

وعن أبي الزُّبَيرِ،[15] قال: ((كان ابنُ الزُّبَيرِ[16] يَقولُ في دُبُرِ كُلِّ صَلاةٍ حينَ يُسَلِّمُ: لا إلهَ إلَّا اللهُ وَحْدَه لا شَريكَ له، له المُلْكُ وله الحَمدُ، وهو على كُلِّ شَيءٍ قَديرٌ، لا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلَّا باللهِ، لا إلهَ إلَّا اللهُ، ولا نَعبُدُ إلَّا إيَّاه، له النِّعمةُ وله الفَضلُ، وله الثَّناءُ الحَسَنُ، لا إلهَ إلَّا اللهُ مُخلِصينَ له الدِّينَ، ولو كَرِهَ الكافِرونَ، وقال: كان رَسولُ اللهِ – ﷺ – يُهَلِّلُ[17] بِهِنَّ دُبُرَ[18] كُلِّ صَلاةٍ)).[19]

---

(15) هو محمَّدُ بنُ مُسلِمِ بنِ تَدْرُسَ.

(16) أي: عبدُ اللهِ بنُ الزُّبيرِ بنِ العوَّامِ رضي اللهُ عنهما.

(17) يُهَلِّلُ: أي: يُعلِنُ بذلك، ويَرفَعُ صَوتَه.

يُنظر: ((مطالع الأنوار)) لابن قُرْقُول (127/6).

(18) دُبُرَ: أي: عَقِبَها وخَلْفَها، أو في آخِرِها.

يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (756/2).

(19) رواه مسلم (594).

سورةُ غافِرٍ

الآيات (15–17)

رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ
(15) يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ
(16) الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (17)

غريب الكلمات:

رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ: أي: العَلِيُّ الأعلَى، مُرتفِعُ الدَّرَجاتِ، وأصلُ (رفع): يدُلُّ على خلافِ الوضعِ. وأصلُ (درج): يدُلُّ على مُضِيِّ الشَّيءِ، والمُضِيّ في الشَّيءِ.

الرُّوحَ: أي: الوحْيَ، وسُمِّيَ الوحْيُ رُوحًا؛ لأنَّ حياةَ القُلوبِ والأرواحِ به، كما أنَّ حياةَ الأبدانِ بالأرواحِ، وأصلُ (روح): يدُلُّ على سَعةٍ وفُسْحةٍ واطِّرادٍ.

تفسير الآيات:

رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ (15).

رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ.

أي: هو العَلِيُّ الأعلى فَوقَ السَّمَواتِ.

كما قال تعالى: مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ * تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ [المعارج: 3، 4].

ذُو الْعَرْشِ.

أي: صاحِبُ العَرشِ العَظيمِ، العالي على جَميعِ المخلوقاتِ، وقد استَوى عليه استواءً يَليقُ بعَظَمتِه وجَلالِه.

كما قال تعالى: الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى [طه: 5].

يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ.

أي: يُنزِّلُ اللهُ الوَحيَ[20] مِنْ أمْرِه على مَن يَشاءُ مِن عبادِه، وهم الرُّسُلُ.

كما قال تعالى: يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ [النحل: 2].

وقال سُبحانَه: وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا [الشورى: 52].

لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ.

أي: لِيُخَوِّفَ النَّاسَ ويُحَذِّرَهم يومَ القيامةِ.[21]

---

(20) اختُلف في المراد بالروح على أقوال: الأول: أنه القرآن والكتاب.
الثاني: النُّبوّة.
الثالث: الوحي.
ورأى ابنُ جرير (٢٠/ ٢٩٦) تقارب هذه الأقوال فقال: «وهذه الأقوال متقاربات المعاني، وإن اختلفت أصحابها بها».
قال ابنُ عطية (٧/ ٤٢٨): «قوله: ﴿مِن أَمْرِهِ﴾ إن جعلته جنسًا للأمور فـ ﴿مِن﴾ للتبعيض، أو لابتداء الغاية، وإن جعلنا الأمر من معنى الكلام فـ ﴿مِن﴾ إما لابتداء الغاية، وإما بمعنى الباء، ولا تكون للتبعيض بتّة».
وساق ابنُ عطية (٧/ ٤٢٨) الأقوال، ثم ذكر احتمالًا آخر، فقال: «ويحتمل أن يكون إلقاء الروح عامًّا لكل ما ينعم الله به على عباده المهتدين في تفهيمه الإيمان والمعتقدات الشرعية».
وعلَّق عليه بقوله: «والمقدّر –على هذا التأويل–: هو الله تعالى».
ثم نقل قولًا للزَّجّاج بأن الرُّوحَ: كل ما به حياة الناس، وكل مهتدٍ حي، وكل ضال كالميت.
(21) اختُلف في تسمية يوم القيامة بيوم التَّلاق على أقوال: الأول: لأنه يلتقي فيه أهل السماء وأهل الأرض.
الثاني: لأنه يلتقي فيه الأولون والآخرون.

كما قال تعالى: وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ [الأنعام: 19].

وقال سُبحانَه: يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ [الانشقاق: 6].

يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (16).

يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ.

أي: يومَ يكونُ النَّاسُ بعدَ خُروجِهم مِن قُبورِهم ظاهِرِينَ في صَعيدٍ واحِدٍ.

كما قال تعالى: يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ [إبراهيم: 48].

لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ.

أي: لا يَخفَى على اللهِ مِن النَّاسِ شَيءٌ مِن ذَواتِهم وأحوالِهم، وظَواهِرِهم وبواطِنِهم.

الثالث: يلتقي فيه الخلق والخالق.

الرابع: لأنه يلتقي فيه الظالم والمظلوم.

الخامس: لأنه يلقى المرء فيه عمله.

ذكَره ابنُ عطية (٧/ ٤٢٨).

وعلَّق ابنُ كثير (١٢/ ١٧٩) بعد ذكره للأقوال بقوله: «وقد يقال: إن يوم القيامة هو يشمل هذا كله، ويشمل أن كل عامل سيلقى ما عمله من خير وشر».

وذكر ابنُ عطية (٧/ ٤٢٨) أن القول الثالث -الذي قاله قتادة، ومقاتل- هو أشدُّها تخويفًا.

لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ.

أي: يَقولُ اللهُ تعالى يومَ القيامةِ: لِمَنِ المُلْكُ اليومَ؟ فيُجيبُ نَفْسَه تعالى فيَقولُ: للهِ الواحِدِ القَهَّارِ؛ الواحِدِ الَّذي لا شَريكَ له في مُلكِه، ولا مِثْلَ له في ذاتِه وأسمائِه وصِفاتِه وأفعالِه، القَهَّارِ الَّذي قَهَر وغَلَب كُلَّ شَيءٍ؛ فكُلُّ ما سِواه خاضِعٌ له.

عن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ - ﷺ -: ((يَقبِضُ اللهُ تبارك وتعالى الأرضَ يومَ القيامةِ، ويَطوي السَّماءَ بيَمينِه، ثمَّ يقولُ: أنا المَلِكُ! أين مُلوكُ الأرضِ؟!)).(22)

الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (17).

الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ.

أي: اليَومَ يُثابُ كُلُّ عامِلٍ بما عَمِلَه في الدُّنيا جزاءً مُناسِبًا لعَمَلِه مِن خيرٍ أو شَرٍّ.

كما قال تعالى: لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى [طه: 15].

لَا ظُلْمَ.

أي: لا ظُلْمَ يومَ القيامةِ على أحَدٍ بوَجهٍ مِن الوُجوهِ؛ فلا يُعاقَبُ أحَدٌ بذَنْبِ غَيرِه، ولا يُعاقَبُ بأكثَرَ مِمَّا يَستَحِقُّ، ولا يُزادُ في سَيِّئاتِه شَيءٌ، ولا يُنقَصُ مِن حَسَناتِه شَيءٌ.

---

(22) رواه البخاري (6519)، ومسلم (2787) واللَّفظُ له.

كما قال تعالى: إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا [النساء: 40].

وقال عزَّ وجلَّ: فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ [الزلزلة: 7، 8].

وعن أبي ذَرٍّ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ – ﷺ –فيما رَوى عن اللهِ تبارَك وتعالى أنَّه قال: ((يا عِبادي، إنِّي حَرَّمتُ الظُّلْمَ على نفْسي، وجعَلْته بيْنَكم مُحَرَّمًا، فلا تَظَالَموا)).[23]

إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ.

أي: إنَّ اللهَ ذو سُرعةٍ بالِغةٍ في مُحاسَبةِ عِبادِه يومَ القيامةِ على ما عَمِلوا في الدُّنيا.

(23) رواه مسلم (2577).

سورةُ غافِرٍ

الآيات (18-20)

وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ (18) يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ (19) وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (20)

غريب الكلمات:

الْآزِفَةِ: أي: القيامةِ، سُمِّيت بذلك لِقُربِها، وأصلُ (أزف): يدُلُّ على الدُّنُوِّ والمُقارَبة.

الْحَنَاجِرِ: أي: الحُلُوق، جمعُ حَنْجَرةٍ: وهي آخرُ الحَلْقِ ممَّا يَلِي الفَمَ، أو: طرَفُ المَرِيءِ ممَّا يَلي الفَمَ، وتراه ناتئًا مِنْ خَارجِ الحَلْقِ.

كَاظِمِينَ: أي: مَكروبِينَ مُمتَلِئِينَ خوفًا وحُزنًا، والكَظْمُ: تَرَدُّدُ الغَيظِ والخَوفِ والحُزنِ في القَلبِ حتَّى يَضيقَ به، وأصلُ (كظم): يدُلُّ على إمساكٍ وجَمعٍ للشَّيءِ.

حَمِيمٍ: أي: قَريبٍ مُشفِقٍ، وأصلُ (حمم) هنا: يدُلُّ على دُنُوٍّ.

شَفِيعٍ: أي: شافعٍ، فعيلٌ بمعنى فاعلٍ، والشَّفاعةُ: الانضِمامُ إلى آخَرَ نُصرةً له، وسُؤالًا عنه، والشَّفعُ: ضَمُّ الشَّيءِ إلى مِثلِه، وأصلُ (شفع): يدُلُّ على مُقارَنةِ الشَّيئَينِ.

خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ: أي: خِيانَتَها، وهي مُسارَقةُ النَّظَرِ إلى ما لا يَحِلُّ، وأصلُ (خون): يدُلُّ على تَنَقُّصٍ، وذلك نُقصانُ الوَفاءِ.

تفسير الآيات:

وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ (18).

وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ.

أي: وخَوِّفِ النَّاسَ –يا مُحَمَّدُ– وحَذِّرْهم مِن يَومِ القيامةِ وما فيه مِن أهوالٍ.

كما قال تعالى: اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ [الأنبياء: 1].

وقال سُبحانَه: أَزِفَتِ الْآزِفَةُ * لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ [النجم: 57، 58].

إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ.

أي: حينَ تَبلُغُ قُلوبُ العِبادِ حَناجِرَهم؛ مِن شِدَّةِ خَوفِهم، فعَلِقَت فيها، فلا تَخرُجُ مِن أبدانِهم فيَموتوا، ولا تَرجِعُ إلى مَواضِعِها، قد امتلأَتْ خَوفًا وغَمًّا ورُعبًا، فلا يَقدِرونَ على الكَلامِ.(24)

---

(24) ذكر ابنُ عطية (٧/ ٤٣١) أن قوله: ﴿إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ﴾ يحتمل احتمالين: الأول: أن يكون حقيقة يوم القيامة من انتقال قلوب البشر إلى حناجرهم وتبقى حياتهم، بخلاف الدنيا التي لا تبقى لأحد فيها حياة مع تنقّل قلبه.

الثاني: أن يكون تجوّزًا عبّر به عمّا يجده الإنسان من الجزع وصعود نفسه وتضايق حنجرته بصعود قلبه، وهذا كما تقول العرب: كادت نفسي أن تخرج.

وهذا المعنى يجده المفرّط الجزِع كالذي يساق إلى القتل ونحوه.

مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ.

أي: ليس للّذين ظَلَموا أنفُسَهم بالشِّركِ يومَ القيامةِ قَريبٌ أو صاحِبٌ مُحِبٌّ مُشفِقٌ يَدفَعُ عنهم عذابَ اللهِ، وليس لهم شَفيعٌ يَشفَعُ لهم عندَ اللهِ؛ فيُجابَ فيما سألَ، وتُقبَلَ شَفاعتُه فيهم.

كما قال تعالى حاكيًا عن أهلِ النَّارِ قولَهم: فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ * وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ [الشعراء: 100، 101].

وقال سُبحانَه: فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ [الحاقة: 35].

وقال عزَّ وجَلَّ: وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا * يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ * وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ * وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ [المعارج: 10 – 14].

يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ (19).

يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ.

أي: يَعلَمُ اللهُ خيانةَ الأعيُنِ.[25]

---

(25) ذكر ابنُ عطية (٧/ ٤٣١) أن قوله: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ﴾ متصل بقوله: ﴿سَرِيعُ الحِسَابِ﴾؛ لأن سرعة حسابه تعالى للخلْق إنما هي بعلمه الذي لا يحتاج معه إلى رؤية وفكرة، ولا لشيء مما يحتاجه الحاسبون.

ثم ذكر أنّ فرقة قالت: ﴿يَعْلَمُ﴾ متصل بقوله: ﴿لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنهُمْ شَيْءٌ﴾، وعلَّق عليه بقوله (٧/ ٤٣٢): «وهذا قول حسن، يقويه تناسب المعنيين».

ثم انتقده مستندًا إلى دلالة العقل، فقال: «ويضعّفه بُعْدُ الآية من الآية، وكثرة الحائل».

كما قال تعالى: إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا [النساء: 1].

وقال سُبحانَه: قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ [النور: 30].

وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ.

أي: ويَعلَمُ اللهُ ما تَنطوي عليه صُدورُهم مِنَ الضَّمائِرِ.

وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (20).

وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ.

أي: واللهُ يَحكُمُ بيْنَ عِبادِه بالعَدلِ التَّامِّ، ومِن ذلك مُجازاتُه لكُلِّ مَن غَضَّ بَصَرَه وأخفَى الخَيرَ، أو خانت عَينُه وأضمَرَ الشَّرَّ.

كما قال الله تعالى: لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى [النجم: 31].

ذكر ابن عطية (٧/ ٤٣٢) أن ما ذكره المفسرون في هذه الآية من نظر الرجل إلى امرأة هي حُرمة لغيره، وما قالوه من أن خائنة الأعين: هي النظرة الثانية.

وما تخفي الصدور: أي عند النظرة الأولى التي لا يمكن المرء دفعها، هو مثال، ثم علَّق بقوله: «وهذا المثال جزء من خائنة الأعين».

وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ.

أي: والَّذين يَدْعوهم المُشرِكونَ مِن دُونِ اللهِ لا يَحكُمونَ بشَيءٍ؛ فهم لا يَعلَمونَ شَيئًا، ولا يَملِكونَ شَيئًا، ولا يَقدِرونَ على شَيءٍ.

كما قال تعالى: ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ * إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ [فاطر: 13، 14].

إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ

أي: إنَّ اللهَ هو السَّميعُ لكُلِّ صَوتٍ، البَصيرُ بكُلِّ شَيءٍ.

سورةُ غافرٍ

الآيتان (21–22)

أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ
قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ (21) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ
كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ (22)

غريب الكلمات:

وَآثَارًا: أي: ما تُرِكَ في الأرضِ مِنَ البِناياتِ والمَعالِمِ والحُصونِ، وأثَرُ الشَّيءِ: حُصولُ ما يدُلُّ على وُجودِه، وأصلُ (أثر): يدُلُّ على رَسمِ الشَّيءِ الباقي.

وَاقٍ: أي: حافِظٍ ونافعٍ، والوِقايةُ: حِفظُ الشَّيءِ مِمَّا يُؤذيه ويَضُرُّه، وأصلُ (وقي): يدُلُّ على دَفعِ شَيءٍ عن شَيءٍ.

تفسير الآيتين:

أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ (21).

أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ.

أي: أوَلَم يَسِرْ أولئكَ المُشرِكونَ مِن كُفَّارِ قُرَيشٍ في الأرضِ، فيَنظُروا مُعتَبِرينَ نهايةَ أمْرِ مَن كان قَبلَهم مِنَ الأُمَمِ الماضيةِ؟

كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ.

أي: كان كُفَّارُ الأُمَمِ الماضيةِ أشَدَّ قوَّةً مِن كُفَّارِ قُرَيشٍ، وأعظَمَ آثارًا في الأرضِ منهم.

كما قال تعالَى: أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ [الروم: 9].

فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ.

أي: فلمْ تَنفَعْهم شِدَّةُ قُوَّتِهم ولا آثارُهم في الأرضِ؛ حيثُ عاقَبَهمُ اللهُ فأهلَكَهم بسَبَبِ ذُنوبِهم.

وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ.

أي: ولم يَكُنْ لهم حِينَ جاءَهم عذابُ اللهِ أحدٌ يَقيهم منه، ويدفعُه عنهم.

ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ

(22).

ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ.

أي: إنَّما نَزَل ذلك العَذابُ بهم؛ لأنَّهم كانتْ تأتيهم رسُلُهم بالدَّلالاتِ الواضِحاتِ على تَوحيدِ اللهِ وصِدقِ رُسُلِه، فكفَروا، وجَحَدوا توحيدَ اللهِ، وكَذَّبوا رسُلَه؛ فعاقَبَهم اللهُ بعَذابِه فأهلَكَهم.

إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ.

أي: إنَّ اللهَ ذو قُوَّةٍ عَظيمةٍ؛ فلا يُعجِزُه شَيءٌ، ولا يَقهَرُه شَيءٌ سُبحانَه، وعِقابُه شَديدٌ على مَن يَستَحِقُّه.

كما قال تعالَى: كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ [الأنفال: 52].

سورةُ غافرٍ

الآيات (23–27)

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ (23) إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (24) فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ (25) وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ (26) وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ (27)

غريب الكلمات:

وَسُلْطَانٍ: أي: حُجَّةٍ وبُرهانٍ، وأصْلُ السُّلطانِ: القوَّةُ والقهرُ، مِن التَّسلُّطِ؛ ولذلك سُمِّي السُّلطانُ سُلطانًا.

وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ: أي: استَبقُوهنَّ أحياءً، والاستحياءُ: الإبقاءُ حَيًّا، واستَفعَلَ فيه بمعنى أفعَلَ، وأصلُ (حيي): يدُلُّ على خِلافِ الموتِ.

ذَرُونِي: أي: اترُكوني، ودَعُوني، يُقالُ: فلانٌ يَذَرُ الشيءَ، أي: يَرْميه لِقلَّةِ اعتِدادِه به.

عُذْتُ: أي: التجَأْتُ واعتَصَمْتُ واستَجَرْتُ، وأصلُ العَوذِ: الالتِجاءُ إلى الغَيرِ، والتعَلُّقُ به.

تفسير الآيات:

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ (23).

أي: ولقدْ أرسَلْنا موسى بمُعجِزاتِنا، وبحُجَّةٍ ظاهِرةٍ مُظهِرةٍ للحَقّ.

كما قال تعالَى: وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ [الإسراء: 101].

إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (24).

أي: إلى فِرعَونَ مَلِكِ مِصرَ، ووَزيرِه هامانَ، وقارونَ الذي كان مِن قَومِ مُوسَى فبغَى عليهم؛ فقالوا عن مُوسَى: هو ساحِرٌ فيما يُرينا مِن آياتٍ، كذَّابٌ في زَعْمِه أنَّ اللهَ أرسَلَه إلينا.

كما قال تعالَى: وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ [العنكبوت: 39].

وقال سُبحانَه: وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ [ص: 4].

فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ (25).

فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ.

أي: فلمَّا جاءَهم مُوسى بالحَقِّ مِن عِندِ اللهِ، لم يُذعِنوا له، وقالوا: اقتُلوا أبناءَ الذين آمَنوا مع مُوسى، واستَبْقُوا نِساءَهم أحياءً.

كما قال تعالَى: وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ [الأعراف: 127].

وقال سُبحانَه: وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ [إبراهيم: 6].

وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ.

أي: كادُوا هذه المَكِيدةَ زاعِمينَ أنَّهم إذا قَتَلوا أبناءَهم واستَحْيَوا نِساءَهم، لم يَقْوَوا، وبَقُوا تحتَ عُبُوديَّتِهم؛ فما كَيْدُهم هذا إلَّا كَيدٌ باطِلٌ مُضمَحِلٌّ؛ فلا يَتمُّ لهم ما قَصَدوه به.

كما قال اللهُ سُبحانَه: ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ [الأنفال: 18].

وقال تعالَى: وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ [غافر: 37].

وقال سُبحانَه عن أصحابِ الفيلِ: أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ [الفيل: 2].

وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ (26).

وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ.

أي: وقال فِرعَونُ: دَعوني أقتُلْ مُوسى، ولْيَدْعُ رَبَّه الذي يَزعُمُ أنَّه أرسَلَه إلينا؛ فيَمنَعَه منِّي!

إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ.

أي: قال فِرعَونُ مُعَلِّلًا إرادتَه قَتْلَ موسى: إنِّي أخافُ -لو ترَكْتُ مُوسى- أن يُغَيِّرَ دِينَكم الذي أنتُم عليه بسِحْرِه!

أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ.

أي: أو أنْ يُظهِرَ مُوسى في أرضِ مِصرَ الفَسادَ.

وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ (27).

أي: وقال موسى: إنِّي أستَجيرُ وأعتَصِمُ برَبِّي وربِّكم مِن كُلِّ مُتكَبِّرٍ مُتعاظِمٍ عن الحَقِّ، لا يُؤمِنُ بيَومِ القِيامةِ الَّذي يحاسِبُ اللهُ فيه عِبادَه، ويُجازيهم على أعمالِهم.

كما قال الله تعالَى حاكيًا قَولَ موسى: وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ [الدخان: 20].

وعن أبي مُوسَى الأشعَريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ - ﷺ -كان إذا خاف قَومًا قال: ((اللهُمَّ إنَّا نَجعَلُك في نُحورِهم، ونَعوذُ بك مِن شُرورِهم)).[26]

(26) أخرجه أبو داود (1537)، والنَّسائي في ((السنن الكبرى)) (8631)، وأحمد (19720).
صحَّحه ابن حبان في ((الصحيح)) (4765)، والحاكمُ على شرط الشيخينِ في ((المستدرك)) (2629)، وصحَّح إسنادَه النووي في ((المجموع)) (396/4)، والعراقي في ((تخريج الإحياء)) (429/1)، وقال ابن حجر في ((الأمالي المطلقة)) (127): (حسنٌ غريبٌ).
وصَحَّحه الألباني في ((صحيح سنن أبي داود)) (1537)، وحَسَّنه شُعَيب الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (19720).

سورةُ غافرٍ

الآيتان (28–29)

وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ
بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ
إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ (28) يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ
فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ
الرَّشَادِ (29)

غريب الكلمات:

مُسْرِفٌ: السَّرَفُ: تجاوزُ الحدِّ في كلِّ فِعلٍ يَفعَلُه الإنسانُ، وأصلُ (سرف): تعدِّي الحَدِّ.

بَأْسِ اللَّهِ: أي: عذابِه، وأصْلُ (بأس): الشِّدَّةُ وما شابَهها.

تفسير الآيتين:

وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آَلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ (28).

وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آَلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ.

أي: وقال رجُلٌ مُؤمِنٌ مِن قَومِ فِرعَونَ يُخفي عنهم إيمانَه باللهِ وبنُبُوَّةِ موسى: كيفَ تستَحِلُّون قتْلَ موسَى مِن أجْلِ قَولِه: رَبِّيَ اللهُ؟! فاقبَلوا قَولَه أو ارفُضوه؛ فإنَّه لا ذنْبَ له يَستحِقُّ به القتلَ.[27]

---

(27) اختُلف في هذا الرجل المؤمن على قولين: الأول: «أنه كان من قوم فرعون، غير أنه كان قد آمن بموسى، وكان يُسِرُّ إيمانه من فرعون وقومه خوفًا على نفسه، وعليه يكون الوقف على قوله: ﴿من آل فرعون﴾؛ لأن ذلك خبر متناهٍ قد تمّ، و﴿يَكْتُمُ﴾ في موضع الصفة دون تقديم وتأخير».

ذكره ابنُ جرير (٢٠/ ٣١١)، وكذا ابنُ عطية (٧/ ٤٣٦).الثاني: «أنه كان إسرائيليًّا، ولكنه كان يكتم إيمانه من آل فرعون».

ذكره ابنُ جرير، وابنُ عطية، وعليه يكون الوقف على قوله: ﴿يكتم إيمانه﴾؛ لأن قوله: ﴿من آل فرعون﴾ صلة لقوله: ﴿يكتم إيمانه﴾، فتمامه قوله: ﴿يكتم إيمانه﴾، ويكون المعنى: وقال رجل مؤمن يكتم إيمانه من آل فرعون.

ففي الكلام تقديم وتأخير.

ورجَّح ابنُ جرير (٢٠/ ٣١٢) القول الأول، وانتقد الثاني مستندًا إلى الدلالة العقلية؛ «لأن فرعون انفعل لكلامه واستمعه، وكفّ عن قتل موسى – عليه السلام –، ولو كان إسرائيليًّا لأوشك أن يعاجل بالعقوبة؛ لأنه منهم».

وكذا ابنُ عطية (٧/ ٤٣٧) مستندًا إلى الدلالة العقلية، فقال: «والأولُ أصح، ولم يكن لأحد من بني إسرائيل أن يتكلم بمثل هذا عند فرعون».

ثم ساق احتمالًا آخر فقال: «ويُحتمل أن يكون من غير القبط، ويقال فيه: من آل فرعون، إذ كان في الظاهر على دينه ومن أتباعه، وهذا كما قال أراكةُ الثقفيّ يرثي أخاه ويتعزّى برسول الله – ﷺ –:

فلا تبك ميتًا بعد ميت أجنَّه علي وعباس وآل أبي بكر.

عن عُروةَ بنِ الزُّبَيرِ، قال: ((سألتُ عبدَ اللهِ بنَ عَمرٍو عن أشَدِّ ما صنعَ المُشرِكونَ برَسولِ اللهِ – ﷺ –؟ قال: رأيتُ عُقبةَ بنَ أبي مُعَيطٍ جاء إلى النَّبيِّ – ﷺ – وهو يُصَلِّي، فوضَعَ رِداءَه في عُنُقِه فخنَقَه به خَنقًا شديدًا، فجاء أبو بكرٍ حتَّى دفعَه عنه، فقال: أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ؟!)).[28]

وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ.

أي: ولم يكُنْ قولُه أيضًا مجرَّدًا عن البيِّناتِ؛ فقد جاءَكم بالدَّلائِلِ الواضِحاتِ، فلِمَ تَستحِلُّونَ قَتْلَه؟!

وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ.

أي: وإنْ كان موسى كاذِبًا في دعواه فإنَّما يَعودُ ضَرَرُ كَذِبِه عليه، وليسَ عليكم في ذلِك ضَرَرٌ.

وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ.

أي: وإنْ كان موسى صادِقًا في دعواه فكذَّبتُموه، فلا بُدَّ أن يُصيبَكم بَعضُ ما يَعِدُكم ويَتهدَّدُكم به مِن العُقوباتِ؛ فلا حاجةَ لكم –إذَنْ– إلى قَتْلِه![29]

يعني: المسلمين؛ إذ كانوا في طاعة أبي بكر؟».

(28) رواه البخاريُّ (3678).

(29) ذكر ابنُ عطية (٧/ ٤٣٧ – ٤٣٨) أنه اختُلف في قوله: ﴿يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾ على أقوال: الأول: أن ﴿بَعْضُ﴾ بمعنى: كلّ.

ونسبه لأبي عبيده وغيره.

الثاني: أنه إلزام للحجة بأيسر ما في الأمر، وليس فيه نفي إضافة الكل.

إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ.

أي: إنَّ اللهَ لا يَهدي للحَقِّ مَن هو مُظهِرٌ للفَسادِ، مُتجاوِزٌ للحَدِّ، مُفترٍ للكَذِبِ.

يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ (29).

يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ.

أي: يا قَومِ لكم الغَلَبَةُ والسُّلطانُ اليومَ في أرضِ مِصرَ، والعُلُوُّ على أهلِها.

فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا.

أي: فمَن يَدفَعُ عنَّا عذابَ اللهِ إنْ حَلَّ بنا؟! فقُوَّتُنا لنْ تنفَعَنا شَيئًا إنْ جاءَتْنا عُقوبةُ اللهِ.

قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى.

ونسبه للزّجّاج.

الثالث: أن المعنى: يصبكم بعض العذاب الذي يذكر، وذلك كافٍ في هلاككم.

الرابع: أن المعنى: أراد ببعض ما يعدكم: عذاب الدنيا؛ لأنه بعض عذاب الآخرة، أي: وتصيرون بعد ذلك إلى الباقي، وفي البعض كفاية في الإهلاك.

ثم قال: «ويظهر لي أن المعنى: يصبكم القسم الواحد مما يعد به، وذلك هو بعض ما يعد؛ لأنه – عليه السلام – وعدهم إن آمنوا بالنعيم، وإن كفروا بالعذاب، فإن كان صادقًا فالعذاب بعض ما وعد به».

أي: قال فِرعَونُ: ما أُشيرُ عليكم ولا أقولُ لكم إلَّا ما أعتقدُه، وأرَى أنَّه هو الحَقُّ والصَّوابُ، فلا أُظهِرُ لكم شيئًا خِلافَ ما أُبطنُه!

وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ.

أي: وما أدْعوكم إلَّا إلى طَريقِ الحَقِّ والسَّدادِ!

سورةُ غافرٍ

الآيات (30–35)

وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ (30) مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ
وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ (31) وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ
يَوْمَ التَّنَادِ (32) يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ
هَادٍ (33) وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا
هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ (34)
الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ
يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ (35)

غريب الكلمات:

دَأْبِ: أي: عادةِ وشَأنِ، وأمْرِ، وفِعلِ، وأصلُ (دأب): يدُلُّ على ملازَمةٍ ودوامٍ، يُقالُ: دأبْتُ في الأمرِ دأبًا: إذا أدمنْتَ العملَ والتَّعبَ فيه.

تُوَلُّونَ: أي: تهرُبونَ، والتَّولِّي: الإعراضُ بعدَ الإقبالِ.

مُدْبِرِينَ: أي: هارِبينَ، والإدبارُ: الذَّهابُ إلى جِهةِ الخَلفِ، وأصلُ (دبر): يدُلُّ على خِلافِ القُبُلِ.

مُرْتَابٌ: أي: شاكٌّ، والرَّيبُ: الشَّكُّ.

كَبُرَ مَقْتًا: أي: عَظُمَ بُغضًا، والمَقْتُ: البُغضُ الشَّديدُ لِمنْ تراه تعاطى القَبيحَ.

تفسير الآيات:

وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ (30).

أي: وقال مُؤمِنُ آلِ فِرعَونَ لِقَومِه: يا قَومِ إنِّي أخافُ عليكم -إنْ قتَلْتُم موسى- يومًا يَحُلُّ فيه هلاكُكم مِثلَ أيَّامِ الأُمَمِ التي تحَزَّبتْ على رُسُلِها، واجتَمَعَتْ على تَكذيبِهم؛ فأهلَكَهم اللهُ تعالَى.

مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ (31).

مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ.

أي: مِثْلَ عادةِ قَومِ نُوحٍ وعادٍ وثَمودَ، والأُمَمِ الذين جاؤُوا بَعْدَهم، كقَومِ لُوطٍ وشُعَيبٍ؛ الذين لَزِموا تَكذيبَ رُسُلِهم، فأهلَكَهم اللهُ بعَذابِه.

وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ.

أي: ولا يُريدُ اللهُ أيَّ ظُلمٍ لعِبادِه، وإنَّما أهلَكَ أحزابَ الكُفرِ مِن الأُمَمِ الماضيةِ؛ بسَبَبِ كُفرِهم به، ومُخالفتِهم أمْرَه، وتَكذيبِهم رُسُلَه؛ فأهلَكَهم بذُنوبِهم.

كما قال اللهُ تعالَى: ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ * كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ [الأنفال: 51، 52].

وقال اللهُ تعالَى: إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ [يونس: 44].

وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ (32).

أي: ويا قومِ إنِّي أخافُ عليكم يومَ القِيامةِ.(30)

يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (33).

يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ.

أي: يومَ تَفِرُّونَ هارِبينَ مِن عَذابِ اللهِ.(31)

---

(30) قال الرازي: (أجمع المفَسِّرون على أنَّ يومَ التَّنادِ يومُ القِيامةِ).

((تفسير الرازي)) (512/27).

وقال ابن عطية: (يَحتمِلُ أنْ يكونَ المرادُ التَّذكيرَ بكلِّ نِداءٍ في القِيامةِ فيه مَشقَّةٌ على الكُفَّارِ والعُصاةِ).

((تفسير ابن عطية)) (558/4).

وقال ابن عاشور: (ويَوْمَ التَّنَادِ هو يومُ الحِسابِ والحَشرِ، سُمِّي يومَ التَّنادِ؛ لأنَّ الخلقَ يَتنادونَ يومئذٍ: فمِن مُستَشْفِعٍ ومن مُتَضَرِّعٍ، ومن مسلِّمٍ ومُهَنِّئٍ، ومِن مُوَبِّخٍ ومِن مُعتذِرٍ، ومن آمِرٍ ومن مُعلِنٍ بالطَّاعةِ؛ قالَ تعالَى: وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ [فصلت: 47] ، وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ [الأعراف: 44] ، وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ [الأعراف: 50] ونحوَ ذلك).

((تفسير ابن عاشور)) (136/24) بتصرُّف.

وقال الشوكاني: (المعنَى: يومَ يُنادي بعضُهم بعضًا، أو يُنادي أهلُ النَّارِ أهلَ الجنَّةِ، وأهلُ الجنَّةِ أهلَ النَّارِ، أو يُنادَى فيه بسعادةِ السُّعداءِ، وشقاوةِ الأشقياءِ، أو يومَ يُنادَى فيه كلُّ أُناسٍ بإمامِهم، ولا مانعَ مِن الحمْلِ على جميعِ هذه المعاني).

((تفسير الشوكاني)) (563/4).

وقال ابنُ كثيرٍ بعدَ أنْ ذكَر عددًا مِن النِّداءاتِ يومَ القيامةِ: (اختار البغويُّ وغيرُه: أنَّه سُمِّي بذلك لمجموعِ ذلك، وهو قولٌ حسنٌ جيدٌ).

((تفسير ابن كثير)) (143/7).

ويُنظر: ((تفسير البغوي)) (112/4).

(31) اختُلف في معنى قوله: ﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ﴾ على قولين: أحدهما: هربًا في الأرض مِن الفزع.

والثاني: انصرافهم إلى النَّار.

مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ.

أي: ما لكم مِنَ اللهِ أيُّ مانعٍ يمنَعُكم مِن عَذابِه.

كما قال اللهُ تعالَى: وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ [يونس: 27].

وقال تعالَى: يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ * فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ [الطارق: 9، 10].

وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ.

أي: ومَن يَخذُلْه اللهُ عن الحَقِّ فلا أحَدَ يَهديه إليه.

كما قال اللهُ تعالَى: وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا [النساء: 88].

وقال الله عزَّ وجلَّ: مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ [الأعراف: 186].

وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ (34).

ورجَّح ابنُ جرير (٢٠/ ٣٢٠) القول الأول استنادًا لموافقته ما جاء في الخبر عن النبي - ﷺ -، فقال: «وأولى القولين في ذلك بالصواب القول الذي روي عن رسول الله - ﷺ - -حديث أبي هريرة في تفسير آية: ﴿ويا قَوْمِ إِنِّي أخافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنادِ﴾ -، وإن كان الذي قاله قتادة في ذلك غير بعيد من الحق، وبه قال جماعة من أهل التأويل».

وذكر ابنُ عطية (٧/ ٤٤١) أن قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ﴾ معناه على بعض الأقاويل في التنادي: «تفرّون هروبًا من الفزع، وعلى بعضها: تفرّون مدبرين إلى النار».

وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ.

أي: قال مُؤمِنُ آلِ فِرعَونَ لِقَومِه: ولقدْ جاء يُوسُفُ إلى أسلافِكم مِن قَبلِ موسى بالحُجَجِ الواضِحةِ الدَّالَّةِ على تَوحيدِ اللهِ، وصِدقِ نبُوَّته.

فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ.

أي: فما زِلتُم –تَبَعًا لأسلافِكم– تَشُكُّونَ فيما جاء به يوسُفُ مِن البَيِّناتِ، فلم تُؤمِنوا الإيمانَ الواجِبَ الخاليَ مِن الشَّكِّ.

حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا.

أي: حتَّى إذا مات يُوسُفُ قال أسلافُكم بالظَّنِّ الباطِلِ: لن يُرسِلَ اللهُ مِن بَعدِ يُوسُفَ رَسولًا غَيرَه.

كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ.

أي: قال مُؤمِنُ آلِ فِرعَونَ لِقَومِه: كما أضَلَّكم اللهُ حِينَ لم تَقبَلوا ما جاءَكم به يُوسُفُ؛ لإسرافِكم وارتيابِكم، يُضِلُّ اللهُ كُلَّ مَن هو مُسرِفٌ على نَفسِه بالكُفرِ أو الظُّلمِ أو العِصيانِ، ذو شَكٍّ وريبةٍ واضطِرابٍ في شأنِ الحَقّ.(32)

كما قال تعالَى: وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ [الأنعام: 110].

وقال الله سُبحانَه: فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ [الصف: 5].

وقال عزَّ وجَلَّ: وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ [الصف: 7].

الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ (35).

---

(32) اختُلف في المراد بالإسراف على قولين: الأول: أنه الشرك.
الثاني: أنه عُني به: مَن هو قتّال سفّاك للدماء بغير حق.
ورجَّح ابنُ جرير (٢٠/ ٣١٣ - ٣١٤) العموم، فقال: «والصواب من القول في ذلك أن يقال: إنّ الله أخبر عن هذا المؤمن أنه عمّ بقوله: ﴿إن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب﴾، والشرك مِن الإسراف، وسفْك الدم بغير حق من الإسراف، وقد كان مجتمعًا في فرعون الأمران كلاهما، فالحق أن يُعمّ ذلك كما أخبر -جلّ ثناؤه- عن قائله أنه عمَّ القول بذلك».

الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا.

أي: الذين يُجادِلون بالباطِلِ في آياتِ اللهِ وحُجَجِه التي جاءَتْ بها الرُّسُلُ بغيرِ دَليلٍ عِندَهم مِنَ اللهِ: عَظُمَ بُغضُ اللهِ والمؤمنينَ لهم ولجِدالِهم.

كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ.

أي: كما طبَع اللهُ على قُلوبِ هؤلاءِ المجادلينَ يَختِمُ اللهُ على قَلبِ كُلِّ مُتكَبِّرٍ عن الحَقِّ، مُتعاظِمٍ على الخَلقِ، مُبالِغٍ في الظُّلمِ والعُدوانِ.

سورةُ غافِرٍ

الآيات (36–40)

وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ (36) أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ
إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ
فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ (37) وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ (38) يَا
قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ (39) مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى
إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا
بِغَيْرِ حِسَابٍ (40)

غريب الكلمات:

صَرْحًا: أي: بِناءً وقَصرًا عاليًا، وأصلُ (صرح): يدُلُّ على ظُهورِ الشَّيءِ وبُروزِه.

تَبَابٍ: أي: بُطلانٍ وخَسارٍ وذَهابٍ، والتَّبابُ: الاستِمرارُ في الخُسرانِ.

مَتَاعٌ: أي: مَنفعةٌ ومُتعةٌ قليلةٌ غيرُ باقيةٍ، والمَتاعُ والمُتعةُ: ما يُنتفَعُ به انتِفاعًا قليلًا غيرَ باقٍ، ثمَّ يَنقضي عن قَريبٍ، وأصلُ (متع): يدُلُّ على مَنفعةٍ وامتدادِ مُدَّةٍ في خَيرٍ.

الْقَرَارِ: أي: المُستَقَرِّ الَّذي لا يَزولُ، وأصلُ (قرر) هنا: يدُلُّ على تمكُّنٍ.

تفسير الآيات:

وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَاب (36).

وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا.

أي: وقال فِرعَونُ لهامانَ: يا هامانُ ابْنِ لي بِناءً عَظيمًا شاهِقًا.

كما قال الله تعالى: وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ [القصص: 38].

... لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَاب (36) أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ (37).

... لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَاب (36) أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى.

أي: رجاءَ الوُصولِ لطُرُقِ السَّمواتِ وأبوابِها الَّتي تُوصِلُني إلى إلهِ موسى فأنظُرَ إليه![33]

---

(33) اختُلف في معنى أسباب السموات على أقوال: الأول: أنه طرقها.

الثاني: أبوابها.

الثالث: أنه عني به: منزل السماء.

وذهب ابنُ جرير (٢٠/ ٣٢٦) إلى الجمع بين الأقوال مستندًا إلى اللغة، والعموم، فقال -بعد أن بيّن أن السبب: هو كلّ ما تُسُبّب به إلى الوصول إلى ما يُطلب، من حبل وسُلّم وطريق، وغير ذلك-: «أولى الأقوال بالصواب في ذلك أن يقال: معناه: لعلي أبلغ مِن أسباب السموات أسبابًا أتَسَبَّب بها إلى رؤية إله موسى؛ طرقًا كانت تلك الأسباب منها، أو أبوابًا، أو منازل، أو غير ذلك».

كما قال تعالى: فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ [القصص: 38].

وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا.

أي: وإنِّي لَأظُنُّ موسى كاذبًا في دَعْواه أنَّ في السَّماء إلهًا!

وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ.

أي: وهكذا زُيِّنَ لِفِرعَونَ عَمَلُه السَّيِّئُ، فرأى الباطِلَ حَسَنًا!

وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ.

أي: ومُنِعَ فِرعَونُ، وصُرِفَ عن طَريقِ الحَقِّ.

وساق ابنُ عطية (٧/ ٤٤٣) الأقوال، ثم ذكر قولًا آخر، فقال: «وقيل: عنى: لعله يجد مع قربه من السماء سببًا يتعلق به».

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

في قَولِه تعالى: وَصُدَّ قِراءتانِ:

1- قِراءةُ وَصُدَّ بضَمِّ الصَّادِ على ما لم يُسَمَّ فاعِلُه، أي: مُنِعَ مِن طريقِ الحَقِّ.(34)

2- قِراءةُ وَصَدَّ بفَتحِ الصَّادِ إسنادًا إلى الفاعِلِ، فقيل: المعنى: صَدَّ نَفْسَه عن الحَقِّ. وقيل: صَدَّ غَيْرَه عن الحَقِّ.(35)

---

(34) قرأ بها عاصمٌ، وحمزةُ، والكِسائيُّ، ويعقوبُ.
يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (298/2).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: 315)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: 632)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: 96).

(35) قرأ بها الباقون.
يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (298/2).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: 315)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: 632)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: 96).
قال ابنُ القيِّم: (صَدَّ بفتح الصَّادِ، ويحتمِلُ وجهَينِ؛ أحدُهما: أعرَضَ، فيَكونُ لازِمًا.
والثَّاني: يكونُ صَدَّ غيرَه، فيكونُ مُتعدِّيًا، والقِراءتانِ كالآيتَينِ؛ لا يَتناقَضانِ).
((شفاء العليل)) (ص: 96).
وذكر ابنُ عثيمين أنَّها تَشملُ المعنيَينِ.
يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: 303).

وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ.

أي: وما احتيالُ فِرعَونَ الَّذي احتاله للاطِّلاعِ إلى إلهِ موسى –بزَعْمِه– إلَّا في خَسارٍ وهَلاكٍ لا يَنالُ به شَيئًا مِمَّا أرادَه.(36)

وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ (38).

أي: وقال الَّذي آمَنَ(37) ناصِحًا لِقَومِه: يا قَومِ إنِ اتَّبعتُموني أُبَيِّنْ لكم الطَّريقَ الصَّحيحَ الَّذي تَصِلونَ به إلى الجنَّةِ.

يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ (39).

---

(36) ذكر ابنُ عطية (٧/ ٤٤٤) أنّ التباب: الخسران، ومنه: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾ [المسد: ١]، ثم قال: «وبه فسّر مجاهد، وقتادة.

وتبُّ فرعون ظاهر؛ لأنه خسِر مالَه في الصرح وغيره، وخسر مُلكه، وخسر نفسه، وخلد في جهنم».

(37) ذكر ابنُ عطية (٧/ ٤٣٦) أنه اختُلف في المراد بقوله: ﴿وقالَ الَّذِي آمَنَ﴾ على قولين: الأول: «أنه هو المؤمن المذكور أولًا، قصّ الله تعالى أقاويله إلى آخر الآيات، ونسبه لجمهور المفسرين».

الثاني: «أنه موسى – عليه السلام –».

وذكر أنهم احتجوا بقوّة كلامه، وأنه جلّح [أي: أقدم ومضى] معهم بالإيمان وذكْر عذاب الآخرة وغير ذلك، ولم يكن كلام الأول إلا بملاينة لهم.

ذكر ابنُ عطية (٧/ ٤٤٤) أن قوله: ﴿اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ﴾ يقوّي أن المتكلم موسى – عليه السلام –، ثم قال: «وإن كان الآخر يحتمل أن يقول ذلك، أي: اتبعوني في اتباعي موسى – عليه السلام –».

يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ.

أي: يا قَومِ ما هذه الحياةُ الدُّنيا إلَّا مَتاعٌ قَليلٌ فانٍ لا يَبقَى.

وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ.

أي: وإنَّ الدَّارَ الآخِرةَ هي دارُ الاستِقرارِ والخُلودِ؛ إمَّا في نعيمِ الجنَّةِ، أو عذابِ النَّارِ؛ فاعمَلوا لآخِرتِكم الَّتي لا زَوالَ لها، ولا انتِقالَ منها.

ثُمَّ بَيَّن كيف تحصُلُ المُجازاةُ في الآخرةِ، فقال:

مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ (40).

مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا.

أي: مَن عَمِلَ في الدُّنيا سَيِّئةً مِن كُفرٍ أو شِركٍ أو مَعصيةٍ، فلا يَجزيه اللهُ في الآخِرةِ إلَّا سَيِّئةً واحِدةً مِثلَها بلا زيادةٍ، فيُعاقِبُه بما يَسوؤُه؛ جَزاءً بما عَمِلَ.

كما قال تعالى: وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ [النمل: 90].

وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ.

أي: ومَن عَمِلَ مِن العبادِ -سواءٌ كان ذكرًا أو أنثى- عمَلًا صالِحًا، بامتِثالِ أمْرِ اللهِ واجتِنابِ نَهْيِه، وهو مُؤمِنٌ باللهِ ورُسُلِه: فأولئك يَدخُلونَ الجنَّةَ في الآخِرةِ.

كما قال تعالى: وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا [النساء: 124].

يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ.

أي: يُرزَقونَ فيها ثوابًا كثيرًا لا نَفادَ له، بلا حَدٍّ ولا عَدٍّ.

سورةُ غافِرٍ

الآيات (41–46)

وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ (41) تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ
مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ (42) لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ
دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ (43)
فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (44) فَوَقَاهُ اللَّهُ
سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ (45) النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا
وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ (46)

غريب الكلمات:

لَا جَرَمَ: أي: حقًّا، وهي كَلِمةٌ تَرِدُ بمعْنَى تَحقيقِ الشَّيءِ، فقِيل: أصْلُها التَّبرِئةُ، بمعنَى: لا بُدَّ، ثُمَّ استُعْمِلت في معنى: حقًّا. وقيلَ: جَرَمَ بمعْنَى كسَبَ. وقيلَ: بمعنَى: وجَبَ وحَقَّ، و (لا) رَدٌّ لِمَا قبْلَها مِن الكلام، ثُمَّ يُبْتَدأُ بها.

وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ: أي: أرُدُّ الأمرَ إليه، وأتوكَّلُ عليه، وأُسلِّمُ أمْري إليه، وأصلُ (فوض): يدُلُّ على اتِّكالٍ في الأمرِ على آخَرَ وردِّه عليه.

وَحَاقَ: أي: أحاطَ ونزَل، وأصلُ (حيق): يدُلُّ على نُزُولِ الشَّيءِ بالشَّيءِ.

غُدُوًّا: جمعُ غَداةٍ: وهي أوَّلُ النَّهارِ، وأصلُ (غدو): يَدُلُّ على زَمانٍ.

وَعَشِيًّا: العَشِيُّ: مِن زَوالِ الشَّمسِ إلى الصَّباحِ، أو: آخِرُ النَّهارِ، وأصلُ (عشو): يدُلُّ على ظلامٍ، وقِلَّةِ وُضوحِ الشَّيءِ.

تفسير الآيات:

وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ (41).

أي: قال مُؤمِنُ آلِ فِرعَونَ لِقَومِه: ويا قَومي ما لي أدعُوكم إلى سَبيلِ النَّجاةِ مِن العَذابِ، وتَدعُونَني أنتم إلى طَريقِ النَّارِ؟!

كما قال تعالى: إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ [المائدة: 72].

تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ (42).

تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ.

أي: تَدْعُونَني لِأكفُرَ باللهِ وأُشرِكَ بهِ ما لا أعلَمُ دَليلًا على صِحَّتِه.

وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ.

أي: وأنا أدعوكم إلى عبادةِ العَزيزِ ذي القَهرِ والانتِقامِ مِمَّن استكبَرَ عن الحَقِّ وكَفَر به، البالِغِ المَغفرة لِمَن تابَ إليه.

لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ (43).

لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ.

أي: حَقًّا يَقينًا لا شَكَّ فيه أنَّ الَّذي تَدْعُونَني إلى عبادتِه مِن الأوثانِ: عاجِزٌ لا يَصلُحُ لِلألوهيَّةِ في الدُّنيا والآخِرةِ.

كما قال تعالى: وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ * إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ [فاطر: 13، 14].

وقال الله سبحانه: وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ * وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ [الأحقاف: 5، 6].

وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ.

أي: ولا شَكَّ أيضًا أنَّ مَرجِعَنا جميعًا بعدَ مماتِنا إلى الله، فيُجازي كلَّ عاملٍ بحَسَبِ عَمَلِه.

وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ.

أي: ولا شَكَّ أنَّ الَّذين تَعَدَّوا حُدودَ اللهِ؛ كالوُقوعِ في الشِّرك، وسَفكِ الدِّماءِ بغَيرِ حَقٍّ: [38]هم أصحابُ النَّارِ المُلازِمونَ لها عندَ مَرجِعِنا إلى اللهِ.

كما قال تعالى: وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ [يونس: 83].

وعن مُعاويةَ رَضِيَ الله عنه، قال: سَمِعتُ رَسولَ اللهِ – ﷺ – يقولُ: ((كُلُّ ذَنْبٍ عسَى اللهُ أن يَغفِرَه إلَّا الرَّجُلَ يَقتُلُ المؤمِنَ مُتعَمِّدًا، أو الرَّجُلَ يَموتُ كافِرًا)).[39]

فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (44).

---

(38) اختُلف في المسرفين على قولين: الأول: أنهم سفّاكو الدماء بغير حق.

الثاني: المشركون.

وجمع ابنُ جرير (٢٠/ ٣٣٣) بين القولين مستندًا إلى أقوال السلف، والسياق، فقال: «﴿وأن المسرفين هم أصحاب النار﴾ يقول: وإنّ المشركين بالله المتعدّين حدوده، القتلة النفوس التي حرم الله قتلها، هم أصحاب نار جهنم عند مرجعنا إلى الله. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل على اختلافٍ منهم في معنى المسرفين في هذا الموضع».

ثم قال (٢٠/ ٣٣٥): «وإنما اخترنا في تأويل ذلك في هذا الموضع ما اخترنا؛ لأن قائل هذا القول لفرعون وقومه إنما قصد به فرعون؛ لكفره، وما كان هم به من قتل موسى، وكان فرعون عاليًا عاتيًا في كفره، سفّاكًا للدماء التي كان مُحرّمًا عليه سفكها، وكل ذلك من الإسراف».

(39) أخرجه النسائي (3984) واللَّفظُ له، وأحمد (16907).

وثّق رجالَه الشَّوكانيُّ في ((نيل الأوطار)) (196/7) وذكر أنَّ له شاهدًا، وصحَّح إسنادَه أحمد شاكر في ((عمدة التفسير)) (521/1)، وصحَّح الحديثَ الألبانيُّ في ((صحيح سنن النسائي)) (3984)، وصحَّحه لغيرِه شُعيبٌ الأرناؤوطُ في تخريج ((مسند أحمد)) (16907).

فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ.

أي: فسوفَ تتذكَّرونَ ما نَصحتُكم به، وتَعلَمونَ صِدقي، وتَندَمونَ حينَ يأتيكم عَذابُ اللهِ.

وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ.

أي: وأُسَلِّمُ أمْري إلى اللهِ، وأتَوَكَّلُ عليه، وأعتَصِمُ به.

عن البَراءِ بنِ عازِبٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، ((أنَّ رَسولَ اللهِ – ﷺ – أمَرَ رجُلًا إذا أخَذَ مَضجَعَه مِنَ اللَّيلِ أن يقولَ: اللَّهُمَّ أسلَمْتُ نَفْسي إليك، ووجَّهتُ وَجْهي إليك، وألجَأْتُ ظَهري إليك، وفَوَّضتُ أمري إليك؛ رَغبةً ورَهبةً إليك، لا مَلجَأَ ولا مَنجا مِنك إلَّا إليك، آمَنتُ بكِتابِك الَّذي أنزَلْتَ، وبِرَسولِك الَّذي أرسَلْتَ، فإنْ ماتَ ماتَ على الفِطرةِ)).[40]

إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ.

أي: إنَّ اللهَ مُطَّلِعٌ على عِبادِه، عالِمٌ بأعمالِهم وأحوالِهم وأُمورِهم كُلِّها، لا يَخفى عليه منهم شَيءٌ.

فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ (45).

فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا.

أي: فحَفِظَ اللهُ مُؤمِنَ آلِ فِرعَونَ، ودَفَع عنه كَيْدَهم.

---

(40) رواه البخاري (247)، ومسلم (2710) واللَّفظُ له.

كما قال تعالى: إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا [الحج: 38].

وقال سُبحانَه: وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ [الطلاق: 3].

وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ.

أي: ونَزَل وأحاطَ بفِرعَونَ وأتْباعِه ما ساءَهم مِن عذابِ اللهِ، الَّذي وَجَبَ عليهم.

كما قال تعالى: وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ [فاطر: 43].

النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ

(46).

النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا.

أي: يُعرَضونَ على النَّارِ كلَّ صَباحٍ ومَساءٍ؛ ليُعذَّبوا بها إلى أن تَقومَ السَّاعةُ.(41)

---

(41) اختُلف في المراد بقوله: ﴿النار يعرضون عليها غدوا وعشيا﴾ على قولين: الأول: تُجعل أرواحهم في قبورهم في أجواف طير سُود، وتُعرض على النار كل يوم مرتين إلى أن تقوم الساعة.

الثاني: يُعرضون في قبورهم على منازلهم في النار تعذيبًا لهم غُدوًّا وعشيًّا.

ورجَّح ابنُ جرير (٢٠/ ٣٣٩) عدم القطع بأحدهما مع إمكان جوازهما، فقال: «وأولى الأقوال في ذلك بالصـــواب أن يُقال: إنّ الله أخبر أنّ آل فرعون يُعرَضون على النار غُدوًّا وعشيًّا.

وجائز أن يكون ذلك العرْض على النار على نحو ما ذكرناه عن الهُزيْل بن شُرحْبيل ومَن قال مثل قوله، وأن يكون كما قال قتادة، ولا خبر يوجب الحُجَّة بأن ذلك المعني به؛ فلا قول في ذلك إلا ما دل عليه ظاهر القرآن، وهم أنهم يعرضون على النار غُدوًّا وعشيًّا».

قال الله تبارك وتعالى: وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ * وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ [الشورى: 44، 45].

وعن عبدِ اللهِ بنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما، أنَّ رَسولَ اللهِ – ﷺ – قال: ((إنَّ أحَدَكم إذا مات عُرِضَ عليه مَقعَدُه بالغَداةِ والعَشِيِّ؛ إن كان مِن أهلِ الجَنَّةِ فمِن أهلِ الجَنَّةِ، وإنْ كان مِن أهلِ النَّارِ فمِن أهلِ النَّارِ، يُقال: هذا مَقعَدُك حتَّى يَبعَثَك اللهُ إليه يومَ القيامةِ)).[42]

وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ.

أي: ويومَ القيامةِ يُقولُ اللهُ للملائكةِ: أدخِلوا فِرعَونَ وأتْباعَه أشَدَّ عذابِ النَّارِ.

---

(42) رواه البخاري (1379)، ومسلم (2866).

القراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسيرِ:

في قولِه تعالى: أَدْخِلُوا قِراءتانِ:

1- قِراءةُ: أُدْخُلُوا بهمزةِ وصْلٍ مضمومةٍ، وضمِّ الخاءِ، على الأمرِ لهم بالدُّخولِ، والمعنى: ويومَ تقومُ السَّاعةُ نقولُ: ادخُلوا يا آلَ فِرعونَ...، ونصْبُ آلَ على هذه القراءةِ؛ لأنَّه نِداءٌ مضافٌ.(43)

2- قِراءةُ: أَدْخِلُوا بهمزةِ قطْعٍ مفتوحةٍ، وكسرِ الخاءِ، على جِهةِ الأمرِ للملائكةِ بإدخالِهم، أي: يُقالُ للملائكةِ: أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ، ونصْبُ آلَ على هذه القراءةِ؛ لأنَّه مفعولٌ به.(44)

---

(43) قَرَأ بها ابنُ كثيرٍ وابنُ عَمرٍو وابنُ عامرٍ وأبو بكرٍ.

يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (2/365).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (2/348)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: 633).

(44) قرأ بها الباقون.

يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (2/365).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (2/348)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: 633).

سورةُ غافِرٍ

الآيات (47–50)

وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ
عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ (47) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ
(48) وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ (49)
قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي
ضَلَالٍ (50)

غريب الكلمات:

يَتَحَاجُّونَ: أي: يَختَصِمونَ، والمُحاجَّةُ: أن يَطلُبَ كلُّ واحدٍ أن يَرُدَّ الآخَرَ عن حُجَّتِه ومحَجَّتِه، والحُجَّةُ: البُرهانُ والسُّلطانُ، وأصلُ (حجج): يدُلُّ على قَصدِ جادَّةِ الطَّريقِ.

لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ: الخَزَنةُ: جَمْعُ الخازِنِ، وهم الملائكةُ الموكَّلونَ على النَّارِ، والخَزْنُ: حِفظُ الشَّيءِ في الخِزانةِ، ثمَّ يُعبَّرُ به عن كلِّ حِفْظٍ؛ كحِفْظِ السِّرِّ ونحوِه، وأصلُ (خزن): يدُلُّ على صيانةِ الشَّيءِ.

تفسير الآيات:

وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ (47).

وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ.

أي: واذكُرْ -يا مُحَمَّدُ- حينَ يَتجادَلُ الكُفَّارُ(45) ويَتخاصَمونَ في النَّارِ.

---

(45) قيل: المرادُ بهم هنا: مُشرِكو أمَّةِ مُحَمَّدٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ.

ومِمَّن ذهب إلى هذا القولِ: ابنُ جرير.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (341/20).

ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (522/27).

وقيل: المرادُ: فِرعَونُ وقَومُه.

ومِمَّن استظهَر هذا: أبو حيَّان.

يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (262/9).

وقيل: هم الَّذين تقدَّمَ ذِكرُهم في قَولِه تعالى: الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ [غافر: 35].

ومِمَّن ذهب إلى هذا القولِ: ابنُ عاشور.

يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (159/24، 160).

وقيل: المرادُ: جميعُ كُفَّارِ الأُمَمِ، وأنَّ هذا ابتِداءُ قَصَصٍ لا يختَصُّ بآلِ فِرعَونَ.

ومِمَّن ذهب إلى هذا القولِ: ابنُ عطيَّة، وهو ظاهِرُ اختيارِ القرطبي، واختاره الثعالبي، والشوكاني.

يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (563/4)، ((تفسير القرطبي)) (321/15)، ((تفسير الثعالبي)) (118/5)، ((تفسير الشوكاني)) (567/4).

قال ابن كثير: (يخبِرُ تعالى عن تَحاجِّ أهلِ النَّارِ في النَّارِ، وتخاصُمِهم، وفِرعَونُ وقَومُه مِن جُملتِهم).

((تفسير ابن كثير)) (149/7).

ومِمَّن اختار العُمومَ أيضًا -وأنَّ المرادَ: أهلُ النَّارِ-: الواحديُّ، وابنُ الجوزي، والرسعني، والسعدي.

فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا.

أي: فيَقولُ الضُّعفاءُ -وهم الأتْباعُ- لِرُؤسائِهم المَتبوعينَ الَّذين تَكبَّروا وتَعاظَموا عن قَبولِ الحقِّ واتِّباعِه: إنَّا كُنَّا في الدُّنيا نَتَّبِعُكم ونُطيعُكم فيما دَعَوْتُمونا إليه مِنَ الضَّلالِ.

فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ.

أي: فهل أنتم -أيُّها المُستَكبِرونَ- مُتحَمِّلونَ عنَّا قِسطًا وجُزءًا مِنَ النَّارِ؟!

قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ (48).

قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا.

أي: قال المُستَكبِرونَ: نحن وأنتم جميعًا مُعذَّبونَ في النَّارِ.

إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ.

أي: إنَّ اللهَ قد حَكَم بيْنَ عِبادِه بالعَدلِ، فلا يُؤاخِذُ أحَدًا بذَنْبِ غيرِه، وقَسَم بيْنَنا العَذابَ بقَدرِ ما يَستَحِقُّه كُلُّ واحدٍ مِنَّا، ولن يُغنيَ أحَدٌ عن أحَدٍ شيئًا!

يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (17/4)، ((تفسير ابن الجوزي)) (41/4)، ((تفسير الرسعني)) (623/6)، ((تفسير السعدي)) (ص: 739).

وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ (49).

أي: وقال أهلُ النَّارِ مِن المُستَكبِرينَ والضُّعَفاءِ لخَزَنةِ جهنَّمَ الموكَّلِينَ بها: ادعُوا ربَّكم يُخَفِّفْ عنَّا يومًا واحِدًا مِن عذابِ النَّارِ؛ فتَحصُلَ لنا بعضُ الرَّاحةِ!

قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ (50).

قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ.

أي: قال لهم خَزَنةُ جهنَّمَ: أوَلَم تَكُ تأتيكم رُسُلُكم في الدُّنيا بالحُجَجِ الواضِحةِ الدَّالَّةِ على الحَقّ؟

قَالُوا بَلَى.

أي: قال الَّذين في النَّارِ لخَزَنةِ جهنَّمَ: بلى، قد جاءَنا الرُّسُلُ بالبَيِّناتِ، فكذَّبْناهم ولم نُؤمِنْ بالحَقِّ بعد أن قامَت علينا حُجَّةُ اللهِ البالِغةُ!

قَالُوا فَادْعُوا.

أي: قال خَزَنةُ جَهَنَّمَ: فادعُوا اللهَ إذَنْ أن يُخَفِّفَ عنكم العَذابَ.

وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ.

أي: وما دُعاءُ الكافِرينَ لله وهم في نارِ جَهنَّمَ إلَّا في ضَياعٍ؛ فهو غيرُ مُوصِلٍ للمَقصودِ، ولا مُحَقِّقٍ للمَطلوبِ؛ فاللهُ لا يَستجيبُ دُعاءَهم، ولا يَتقَبَّلُه منهم![46]

(46) ذكر ابنُ عطية (٧/ ٤٤٨) أن فرقة قالت: إن قوله تعالى: ﴿وما دُعاءُ الكافِرينَ إلّا فِي ضَلالٍ﴾ هو من قول الخزنة. وأن فرقة أخرى قالت: هو من قول الله تعالى إخبارًا منه لمحمد - ﷺ -.

سورةُ غافِرٍ

الآيات (51–56)

إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ (51) يَوْمَ لَا يَنْفَعُ
الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (52) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِي
إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ (53) هُدًى وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ (54) فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ
وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ (55) إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ
بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ
الْبَصِيرُ (56)

غريب الكلمات:

الْأَلْبَابِ: أي: العقولِ الزَّكيَّةِ، مُفرَدُها لُبٌّ، وأصْلُ اللُّبِّ: الخُلُوصُ والجَوْدةُ، والشَّيءُ المُنتقَى.

وَالْإِبْكَارِ: أي: أوَّلِ النَّهارِ، أو مِن مَطلعِ الفَجرِ إلى وَقتِ الضُّحى، وأصلُ (بكر): يدُلُّ على أوَّلِ الشَّيءِ وبَدْئِه.

تفسير الآيات:

إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ (51).

أي: إنَّا لنَنصُرُ رُسُلَنا والمؤمنينَ على أعدائِهم في الحياةِ الدُّنيا، وفي يومِ القيامةِ الَّذي يَقومُ فيه الأشهادُ.[47]

كما قال تعالى: وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ [الأنعام: 34].

(47) ذكر ابنُ عطية (٧/ ٤٤٨ – ٤٤٩) أن بعض المفسرين ذهب إلى أن قوله: ﴿إنا لننصر رسلنا﴾ خاصٌّ فيمَن أظهره الله على أمته كنوح وموسى ومحمد، وليس بعامٍّ؛ لأنّا نجد من الأنبياء مَن قتله قومه؛ كيحيى، ولم يُنصر عليهم، وبيّن أنه على قول السُّدّيّ فالخبر عامٌّ على وجهه، وذلك أن نُصرة الرسل واقعة ولا بُدَّ، إما في حياة الرسول المنصور كنوح وموسى، وإما فيما يأتي من الزمان بعد موته.

ثم علَّق على قول السُّدّيّ بقوله: "ألا ترى إلى ما صنع الله ببني إسرائيل بعد قتلهم يحيى – عليه السلام – مِن تسليط بختنصر عليهم، حتى انتصر ليحيى – عليه السلام –، ونصْر المؤمنين داخل في نصر الرسل – عليه السلام –، وأيضًا فقد جعل الله للمؤمنين الفضلاء ودًّا، ووهبهم نصرًا إذ ظُلموا، وحضّت الشريعة على نُصرتهم، ومنه قول النبي – ﷺ –: «مَن ردَّ عن أخيه المسلم في عِرضه كان حقًّا على الله أن يرد عنه نار جهنم».

وقوله – ﷺ –: «مَن حمى مؤمنًا مِن منافق يغتابه بعث الله مَلكًا يحميه يوم القيامة».

وبنحوه قال ابنُ جرير (٢٠/ ٣٤٥).

ذكر ابنُ عطية (٧/ ٤٤٩) أن الأشهاد يحتمل أن يكون من الشهادة، ويحتمل أن يكون من المشاهدة بمعنى المصدر.

وقال سُبحانَه: إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا [التوبة: 40].

وقال عزَّ وجلَّ: وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ [الروم: 47].

وقال جلَّ ثناؤه: وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ * وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ [الصافات: 171 - 173].

وقال الله سُبحانَه وتعالى: كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ [المجادلة: 21].

يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (52).

يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ.

أي: وهو اليَومُ الَّذي لا يَنفَعُ الظَّالِمينَ فيه اعتِذارُهم عن ظُلمِهم، فقد أعذَرَ اللهُ إليهم في الدُّنيا؛ فلا عُذرَ مَقبولٌ مِنهم في الآخِرةِ.

وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ.

أي: وللظَّالِمينَ البُعدُ والطَّردُ مِن رَحمةِ الله تعالى، فهم مُستَحِقُّونَ لذلك.

وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ.

أي: ولهم معَ ذلك النَّارُ، فبِئسَ المَنزِلُ هيَ.

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ (53).

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى.

أي: ولقد آتَيْنا موسَى ما يُهتَدَى به.

وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ.

أي: وأورَثْنا بني إسرائيلَ التَّوراةَ.

كما قال الله تعالى: إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ [المائدة: 44].

هُدًى وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ (54).

أي: بيانًا للحَقِّ وتَذكيرًا مِنَّا به لأهلِ العُقولِ منهم.

فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ (55).

فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ.

أي: فاصبِرْ –يا مُحمَّدُ– على أذى الكُفَّارِ وتعَنُّتِهم، وعلى دَعوتِهم؛ فإنَّ ما وَعَدَ اللهُ به مِن النَّصرِ في الدُّنيا والآخِرة: آتٍ لا مَحالةَ، كما نصَرَ اللهُ تعالى موسى وبني إسرائيلَ على فِرعَونَ وقَومِه.

وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ.

أي: واطلُبْ مِن رَبِّك –يا مُحمَّدُ– سَتْرَ ذَنْبِك، والتَّجاوُزَ عن المؤاخَذةِ به.

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: سَمِعتُ رَسولَ اللهِ – ﷺ – يقولُ: ((واللهِ إنِّي لَأستَغفِرُ اللهَ وأتوبُ إليه في اليَومِ أكثَرَ مِن سَبعينَ مَرَّةً)).[48]

وعن الأغَرِّ المُزَنِيِّ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ – ﷺ – قال: ((إنَّه لَيُغانُ[49] على قَلبي، وإنِّي لَأستَغفِرُ اللهَ في اليَومِ مِئةَ مَرَّةٍ)).[50]

---

(48) رواه البخاري (6307).

(49) أي: يُطبَقُ ويُستَرُ ويُغطَّى.

يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (1610/4).

(50) رواه مسلم (2702).

وعن أبي مُوسى الأشْعَريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبِيِّ – ﷺ – أنَّه كان يدعو بهذا الدُّعاءِ: ((اللهُمَّ اغفِرْ لي خَطيئتي وجَهْلي، وإسرافي في أمْري، وما أنت أعلَمُ به مِنِّي، اللهُمَّ اغْفِرْ لي جِدِّي وهَزْلي، وخطَئي وَعَمْدي، وكُلُّ ذلك عندي، اللَّهُمَّ اغفِرْ لي ما قَدَّمْتُ وما أخَّرتُ، وما أسرَرْتُ وما أعلَنْتُ، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، أنت المقَدِّمُ وأنت المؤخِّرُ، وأنت على كُلِّ شَيءٍ قَديرٌ)).(51)

وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ.

أي: ونَزِّه رَبَّك –يا مُحمَّدُ– عن كُلِّ نَقصٍ وعَيبٍ تَنزيهًا مُقترِنًا بوَصفِه بصِفاتِ الكَمالِ؛ محبَّةً وتَعظيمًا له سُبحانَه، وذلك في آخِرِ النَّهارِ وأوَّلِه.(52)

كما قال تعالى: وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا [طه: 130].

وقال عزَّ وجلَّ: وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ [ق: 39].

---

(51) رواه البخاري (6398)، ومسلم (2719)، واللفظ له.

(52) ذكر ابنُ جرير (٢٠/ ٣٤٨) أن الإبكار هو مِن طلوع الفجر الثاني إلى طلوع الشـــمس، ثم ذكر قولًا آخر، وهو: أنه من طلوع الشمس إلى ارتفاع الضحى، وخروج وقت الضحى.

ورجَّح الأولَ مستندًا إلى المعروف في لغة العرب، فقال: «والمعروف عند العرب القول الأول».

إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (56).

إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ.

أي: إنَّ الَّذين يُجادِلونَ ويُخاصِمونَ بالباطِلِ في آياتِ اللهِ وحُجَجِه الَّتي جاءت بها الرُّسُلُ؛ بغيرِ دَليلٍ عِندَهم مِن اللهِ: في صُدورِهم كِبْرٌ وتَعاظُمٌ عن قَبولِ الحَقِّ واتِّباعِه، واحتِقارٌ لِمَن جاء به واتَّبَعه، ولن يَنالوا الاستِعلاءَ والرِّفعةَ والعَظَمةَ الَّتي أمَّلوها في الدُّنيا؛ فاللهُ ناصِرٌ دينَه، ومُعْلٍ كَلِمَتَه.

فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ.

أي: فاعتَصِمْ واستَجِرْ باللهِ -يا مُحَمَّدُ- مِن شَرِّ أعدائِك الَّذين يُجادِلونَ في آياتِ اللهِ.[53]

إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ.

أي: إنَّ اللهَ هو السَّميعُ لِقَولِ المُجادِلينَ في آياتِ اللهِ، وغَيرِهم مِنَ الخَلقِ؛ البَصيرُ بما يَعمَلونَه وبكُلِّ شَيءٍ سِواه؛ فلا يَخفَى عليه سُبحانَه شَيءٌ مِن أصواتِ الخَلقِ وذواتِهم وأعمالِهم.

---

(53) ذكر ابنُ عطية (٧/ ٤٥٠) أن الاستعاذة بالله التي أُمر بها النبي – ﷺ – عامة في كل أمره من كل مستعاذ منه، ونقل عن الثعلبي أنه قال: «هذه الاستعاذة هي من الدَّجّال وفتنته».
ورجَّح العموم، فقال: «والأظهر ما قدّمناه من العموم في كل مُستعاذ منه».

سورةُ غافرٍ

الآيات (57–59)

لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (57) وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَا تَتَذَكَّرُونَ (58) إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (59)

تفسير الآيات:

﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (57)﴾.

لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ.

أي: لَخَلْقُ اللهِ السَّموات والأرضَ أعظَمُ مِن خَلْقِه النَّاسَ، فكَيفَ يَعجِزُ عن خَلقِهم خَلقًا جديدًا بعدَما أماتَهم؟! فمَنْ قَدَر على خَلقِ الأجرامِ العَظيمةِ وأتْقَنَها: قادِرٌ على إعادةِ النَّاسِ بعدَ مَوتِهم بطَريقِ الأَولى.(54)

كما قال تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ [يس: 81].

وقال سُبحانَه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأحقاف: 33].

---

(54) ذكر ابنُ عطية (٧/ ٤٥١) أن قوله تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ والأرْضِ أكْبَرُ مِن خَلْقِ النّاسِ﴾ توبيخ لهؤلاء الكفرة المتكبّرين، كأنه قال: مخلوقات الله أكبر وأجل قدْرًا من خلق البشر، فما لأحد منهم أن يتكبّر على خالقه.

ثم ساق احتمالًا آخر، فقال: «ويحتمل أن يكون الكلام في معنى البعث والإعادة، فأعلم أن الذي خلق السماوات والأرض قوي قادر على خلق الناس تارة أخرى».

وعلَّق عليه بقوله: «والخَلْقُ –على هذا التأويل– مصدر مضاف إلى المفعول».

ونقل عن النقاش أنه قال: «المعنى: مما يخلق الناس؛ إذ هم في الحقيقة لا يخلقون شيئًا».

وعلَّق عليه بقوله: «فالخلق في قوله: ﴿مِن خَلْقِ النّاسِ﴾ مضاف إلى الفاعل على هذا التأويل».

وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ.

أي: ولكِنَّ أكثَرَ النَّاسِ لا يَعلَمونَ، فلا يَتدَبَّرونَ ولا يَتأمَّلونَ لِيَعلَموا أنَّ خَلْقَ كُلِّ شَيءٍ يَسيرٌ على اللهِ؛ فلذا يُنكِرونَ البَعثَ بعدَ الموتِ!

وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَا تَتَذَكَّرُونَ (58).

وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ.

أي: ولا يَستوي الأعمَى الَّذي لا يُبصِرُ، والمُبصِرُ الَّذي يرَى؛ فبَيْنَهما فَرقٌ عَظيمٌ، كذلك لا يَسْتوي الكفَرةُ الفُجَّارُ، والمؤمِنونَ الأبرارُ.

كما قال الله سبحانه وتعالى: قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ [المائدة: 100].

وقال سُبحانَه: قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ [الأنعام: 50].

وقال عزَّ وجلَّ: مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ [هود: 24].

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ.

أي: ولا يَستوي المؤمِنونَ المُطيعونَ لله، معَ الَّذين يعمَلونَ السَّيِّئاتِ.

كما قال تعالى: أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ [ص: 28].

وقال سُبحانَه: أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ [الجاثية: 21].

قَلِيلًا مَا تَتَذَكَّرُونَ.

أي: ما أقَلَّ ما تَتذَكَّرونَ[55] حُجَجَ الله، فتَتَّعِظونَ وتعتبِرون! فلو تذكَّرْتُم واعتبَرْتُم لآثَرْتُم الهدَى على الضَّلالِ.

---

(55) قيل: الخِطابُ للنَّاسِ.

ومِمَّن قال بهذا: ابنُ جرير، وابنُ كثير.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (351/20)، ((تفسير ابن كثير)) (152/7).

وقيل: الخِطابُ للكُفَّارِ، فقَلَّ نَظَرُهم فيما يَنبغي أن يَنظُروا فيه.

ومِمَّن قال بهذا: الواحديُّ.

يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (19/4).

وقيل: الخِطابُ للَّذين يُجادِلون في آياتِ الله.

ومِمَّن قال بهذا: ابنُ عاشور.

يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (179/24).

ويُنظر أيضًا: ((نظم الدرر)) للبقاعي (97/17).

إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (59).

إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا.

أي: إنَّ القيامةَ لآتيةٌ لا شَكَّ في وُقوعِها.

وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ.

أي: ولكِنَّ أكثَرَ النَّاسِ لا يُؤمِنونَ بمَجيءِ يومِ القيامةِ؛ فهم يُكذِّبونَ به.

وممَّن اختار أنَّ معنى قَلِيلًا مَا تَتَذَكَّرُونَ أي: تذَكُّركم قليلٌ: ابنُ جرير، ومكِّي، والبيضاوي، والنسفي، وأبو السعود، والشوكاني، والألوسي، والسعدي.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (351/20)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (6451/10)، ((تفسير البيضاوي)) (61/5)، ((تفسير النسفي)) (217/3)، ((تفسير أبي السعود)) (282/7)، ((تفسير الشوكاني)) (570/4)، ((تفسير الألوسي)) (333/12)، ((تفسير السعدي)) (ص: 740).

وقيل: المعنى: لا تَتذكَّرون أصلًا؛ فإنَّه قد يُعبَّرُ بقِلَّةِ الشَّيءِ عن عدَمِه.

يُنظر: ((روح البيان)) للخلوتي (199/8).

سورةُ غافِرٍ

الآيات (60–65)

وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ
دَاخِرِينَ (60) اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ
عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (61) ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ
إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (62) كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (63) اللَّهُ الَّذِي
جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمُ
اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (64) هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ
الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (65)

غريب الكلمات:

دَاخِرِينَ: أي: صاغِرينَ أذِلَّاءَ، وأصلُ (دخر): يدُلُّ على الذُّلِّ.

تُؤْفَكُونَ: أي: تُصرَفونَ عن الحَقِّ، وتَعدِلونَ عنه، وأصلُ (أفك): يدُلُّ على قَلبِ الشَّيءِ وصَرفِه عن جِهَتِه.

قَرَارًا: أي: مُستقَرًّا، وسَكَنًا، يُقال: قرَّ في مكانِه: إذا ثَبَت ثُبوتًا جامِدًا، وأصلُه يدُلُّ على تمكُّنٍ.

فَتَبَارَكَ: أي: تعاظَم، وتعالَى، وتقَدَّس، وكثُر خَيرُه، وعمَّ إحسانُه، مِن البَرَكةِ: وهي الزِّيادةُ والنَّماءُ، والكثرةُ والاتِّساعُ، وأصلُ (برك): ثباتُ الشَّيءِ.

تفسير الآيات:

وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ (60).

وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ.

أي: وقال ربُّكم -أيُّها النَّاسُ-: ادعُوني دعاءَ مَسألةٍ ودعاءَ عِبادةٍ؛ أُعْطِكم سُؤْلَكم،[56] وأتقبَّلْ مِنكم عبادتَكم، وأُثِبْكم.[57]

---

(56) قوله تعالى: ﴿ادعوني استجبْ لكم﴾ فيه ثلاثة أقوال: الأول: وحدوني أغفر لكم.

الثاني: اعبدوني استجب لكم.

الثالث: سَلُوني أعطكم.

وبيّن ابنُ عطية (٧/ ٤٥٢) أن الاستجابة بمعنى إجابة الدعاء مقيّدة بالمشيئة، ثم ذكر أن فرقة قالت: معنى: ﴿أسْتَجِبْ﴾: بالثواب والنصر.

ووجّه من قال: إن الدعاء هو العبادة بالسياق والسنة، فقال: «ويدل على هذا التأويل قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِي﴾، ويُحتج له بحديث النعمان بن بشير أن النبي - ﷺ - قال: «الدعاء هو العبادة»».

وذكر ابنُ تيمية (٥/ ٤٤٧) أن الدعاء يتضمن دعاء العبادة، والمسألة، ثم رجَّح كونه دعاء عبادة مستندًا إلى السياق، قال: «وهو في العبادة أظهر؛ ولهذا أعقبه: ﴿إن الذين يستكبرون عن عبادتي﴾ الآية.

ويُفسر الدعاء بهذا وهذا».

(57) ممَّن اختار أنَّ قولَه: وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ المرادُ به العِبادةُ: ابنُ جرير، ومكّي، والواحدي، والبغوي، والزمخشري، والقرطبي ونسَبَه لأكثرِ المفسِّرينَ، والبيضاوي، وجلال الدين المحلي، والعُلَيمي، وأبو السعود، والقاسمي.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (351/20)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (6451/10)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: 948)، ((تفسير البغوي)) (120/4)، ((تفسير الزمخشري)) (175/4)، ((تفسير القرطبي)) (326/15)، ((تفسير البيضاوي)) (61/5)، ((تفسير الجلالين)) (ص: 626)، ((تفسير العليمي)) (6/ 129)، ((تفسير أبي السعود)) (282/7)، ((تفسير القاسمي)) (316/8).

عن النُّعمانِ بنِ بَشيرٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، عن النَّبيِّ - ﷺ - في قولِه تعالى: وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ، قال: ((الدُّعاءُ هو العِبادةُ، وقرأ: وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ)).(58)

ومعنى قولِه: أَسْتَجِبْ لَكُمْ على ذلك القولِ: أي: أُجِبْكم، وأُثِبْكم، وأتقبَّلْ عِبادتَكم، وأغفِرْ لكم، وأعْفُ عنكم وأرحَمْكم.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (20/351، 352)، ((تفسير البغوي)) (4/120)، ((تفسير القرطبي)) (15/326).

ويجوزُ أن يكونَ الدُّعاءُ والاستِجابةُ هنا على ظاهِرِهما.

وممَّن اختاره: ابنُ جُزَي، فقال: (الدُّعاءُ هنا هو الطَّلبُ والرَّغبةُ، وهذا وعْدٌ مُقيَّدٌ بالمشـيئةِ، وهي موافَقةُ القَدَرِ لِمَن أراد أن يَستجيبَ له).

((تفسير ابن جزي)) (2/234).

وهو ظاهِرُ اختيارِ ابنِ كثيرٍ.

يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (7/153).

وممَّن جمَع بيْن المعنيَينِ، فقال: المرادُ دعاءُ العِبادةِ ودعاءُ المسألةِ: السعديُّ، وابنُ عاشور، والشنقيطيُّ، وابنُ عثيمين.

يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: 740)، ((تفسير ابن عاشور)) = = (24/181)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (6/393)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: 414).

وبِناءً على هذا القولِ تكونُ الاستِجابةُ أُريدَ بها قَبولُ الدعاءِ وإعطاؤُهم سُؤْلَهم، وأيضًا حصولُ أثرِ العِبادةِ وقَبولُها منهم.

يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (24/181، 182)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: 414).

وقال ابن القيِّم: (الدُّعاءُ يَتضمَّنُ النَّوعَينِ [أي: دعاءَ العبادةِ، ودعاءَ المسألةِ]، وهو في دعاءِ العِبادةِ أظهَرُ؛ ولهذا عقَّبَه بقولِه: إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ، فُسِّر الدُّعاءُ في الآيةِ بهذا وهذا).

((بدائع الفوائد)) (3/3).

وقال ابن تيميَّة: (وكلُّ سائلٍ راغبٍ راهبٍ فهو عابدٌ للمَسؤولِ، وكلُّ عابدٍ له فهو أيضًا راغبٌ وراهبٌ، يَرجو رحمتَه، ويَخافُ عذابَه؛ فكلُّ عابدٍ سائلٌ، وكلُّ سائلٍ عابدٌ، فأحَدُ الاسمَينِ يَتناوَلُ الآخَرَ عندَ تجرُّدِه عنه، ولكنْ إذا جُمِع بيْنَهما فإنَّه يُرادُ بالسَّائلِ الَّذي يَطلُبُ جَلْبَ المَنفَعةِ ودَفْعَ المَضَرَّةِ بصِيَغِ السُّؤالِ والطَّلَبِ، ويُرادُ بالعابدِ مَن يَطلُبُ ذلك بامتِثالِ الأمرِ وإن لم يكُنْ في ذلك صِيَغُ سؤالٍ).

((الفتاوى الكبرى)) (5/220).

(58) أخرجه أبو داود (1479)، والترمذي (3247)، والنسائي في ((السنن الكبرى)) (11464)، وابن ماجه (3828)، وأحمد (18352).

وعن أبي سَعيدٍ الخُدْريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ - ﷺ - قال: ((ما مِن مُسلِمٍ يدعو بدَعوةٍ ليس فيها إثمٌ ولا قَطيعةُ رَحِمٍ إلَّا أعطاه اللهُ بها إحدى ثلاثٍ: إمَّا أن تُعجَّلَ له دَعوتُه، وإمَّا أن يَدَّخِرَها له في الآخِرةِ، وإمَّا أن يَصرِفَ عنه مِنَ السُّوءِ مِثْلَها. قالوا: إذًا نُكثِرُ، قال: اللهُ أكْثَرُ!)).[59]

إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ.

أي: إنَّ الَّذين يَتكَبَّرونَ ويَتعاظَمونَ عن عِبادتي ودُعائي سيَدخُلونَ جَهنَّمَ وهم أذِلَّاءُ صاغِرونَ.

قال الترمذي: (حسَنٌ صَحيحٌ)، وصَحَّحه ابن حِبَّان في ((الصحيح)) (890)، وابنُ باز في ((مجموع الفتاوى)) (112/2)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن ابن ماجه)) (3828)، وصَحَّح إسنادَه النَّوويُّ في ((الأذكار)) (478)، وشعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (18352)، وجَوَّده ابنُ حجر في ((فتح الباري)) (64/1).

(59) أخرجه مِن طُرُقٍ: أحمدُ (11133) واللَّفظُ له، والحاكم (1816)، والبيهقي في ((شُعَب الإيمان)) (1130).
صحَّح إسنادَه الحاكمُ، وحَسَّن الحديثَ ابنُ عساكر في ((معجم الشيوخ)) (174/1)، وذكَر ثبوتَه الشَّوكانيُّ في ((فتح القدير)) (274/1)، وابنُ باز في ((مجموع الفتاوى)) (122/26)، وقال الألباني في ((صحيح الترغيب)) (1633): (حسَنٌ صحيحٌ)، وقال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (151/10): (رجالُه رجالُ الصَّحيحِ غيرَ عليِّ بن عليٍّ الرِّفاعيِّ، وهو ثقةٌ).
وجوَّد إسنادَه شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (214/17).

عن عبدِ اللهِ بنِ عَمرِو بنِ العاصِ رَضِيَ الله عنهما، عن النَّبِيِّ – ﷺ –، قال: ((يُحشَرُ المُتكَبِّرون يومَ القيامةِ أمثالَ الذَّرِّ[60] في صُوَرِ الرِّجالِ، يَغْشاهم الذُّلُّ مِن كُلِّ مَكانٍ، فيُساقُونَ إلى سِجنٍ في جهنَّمَ يُسمَّى بُولَسَ، تَعلوهم نارُ الأنْيارِ،[61] يُسقَونَ مِن عُصارةِ أهلِ النَّارِ؛ طِينةِ الخَبالِ))[62].[63]

اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (61).

اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ.

أي: اللهُ المُستحِقُّ للعِبادةِ وَحْدَه هو الَّذي خَلَق لكم اللَّيلَ –أيُّها النَّاسُ–؛ لأجلِ أن تَستريحوا فيه مِن حَركةِ وعَناءِ أشغالِكم في النَّهارِ.

(60) أمثالَ الذَّرِّ: أي: مِثلَ الذَّرَّةِ –وهي النَّملةُ الصَّغيرةُ– في الصِّغَرِ والحقارةِ.
يُنظر: ((المفاتيح في شرح المصابيح)) للمُظْهِري (256/5)، ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (3192/8).
(61) نارُ الأنْيارِ: أي: نارُ النِّيرانِ، وإضافةُ النَّارِ إليها للمُبالغةِ، كأنَّ هذه النَّارَ لِفَرطِ إحراقِها وشِدَّةِ حَرِّها تفعَلُ بسائِرِ النِّيرانِ ما تَفعَلُ النَّارُ بغيرِها، أو لأنَّها أصلُ نيرانِ العالَمِ.
يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (3193/8).
(62) طِينةِ الخَبالِ: تفسيرٌ لما قَبْلَه، وهو اسمُ عُصارةِ أهلِ النَّارِ: وهو ما يَسيلُ منهم مِنَ الصَّديدِ والقَيحِ والدَّمِ.
يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (3193/8).
(63) أخرجه الترمذي (2492) واللفظ له، وأحمد (6677).
قال الترمذي: (حسَنٌ صحيحٌ)، وحسَّن الحديثَ الألبانيُّ في ((صحيح سنن الترمذي)) (2492)، وصَحَّح إسنادَه أحمد شاكر في تخريج ((مسند أحمد)) (157/10)، وحسَّنه شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (260/11).

وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا.

أي: وجَعَلَ اللهُ لكم النَّهارَ مُضيئًا تُبصِرونَ فيه؛ لِتَطلُبوا فيه حوائِجَكم وتَقضُوها.

إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ.

أي: إنَّ اللهَ لَمُتفَضِّلٌ على النَّاسِ كافَّةً، وفضْلُه عليهم كثيرٌ جِدًّا، ومِن فَضلِه أنْ جَعَل اللَّيلَ سَكَنًا، والنَّهارَ مُبصِرًا.

وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ.

أي: ولكِنَّ أكثَرَ النَّاسِ لا يَشكُرونَ اللهَ على نِعَمِه؛ بالاعتِرافِ بها، أو طاعةِ المُنْعِمِ بها، وإخلاصِ العبادةِ له.

ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (62).

ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ.

أي: ذَلِكم المتفَرِّدُ بإجابةِ دُعائِكم، الَّذي جَعَل لكم اللَّيلَ سَكَنًا والنَّهارَ مُبصِرًا: هو وَحْدَه اللهُ المُرَبِّي لكم، والمُحسِنُ إليكم، الذي خَلَق كُلَّ شَيءٍ.

لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ.

أي: لا مَعبودَ بحَقٍّ إلَّا اللهُ، ولا تَنبغي العِبادةُ إلَّا له سُبحانَه دونَ ما سِواه.

فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ.

أي: فكيف تُصرَفونَ عن الإيمانِ باللهِ وعِبادتِه وَحْدَه إلى عبادةِ غَيرِه، مع قيامِ الأدِلَّةِ على تَوحيدِه؟!

كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (63).

أي: مِثلَ هذا الصَّرفِ العَجيبِ عن التَّوحيدِ والإخلاصِ يُصرَفُ أيضًا كُلُّ مَنِ استَمَرَّ على جُحودِ آياتِ اللهِ عِنادًا ومُكابَرةً، دونَ تأمُّلٍ وتدَبُّرٍ في معانيها ودلائِلِها!

كما قال تعالى: وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ [الأنعام: 110].

وقال سُبحانَه: صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ [التوبة: 127].

اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (64).

اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا.

أي: اللهُ الَّذي جَعَل لكم الأرضَ مَوضِعًا مُهَيَّأً للاستِقرارِ عليه دونَ اضطِرابٍ، فتَتَمَكَّنونَ مِن الإقامةِ والسُّكنى فيها، والمشْيِ عليها، وحَرْثِها وغَرْسِها والبناءِ عليها.

وَالسَّمَاءَ بِنَاءً.

أي: وجَعَل اللهُ لكم السَّماءَ بِناءً مَرفوعًا وسَقفًا للأرضِ.

كما قال تعالى: وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا [الأنبياء: 32].

وقال سُبحانَه: وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا [النبأ: 12].

وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ.

أي: خَلَقَكم اللهُ فجعَلَكم في أشكالٍ حَسَنةٍ.

كما قال تعالى: لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ [التين: 4].

وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ.

أي: ورزَقَكم اللهُ مِنَ الأرزاقِ الشَّهيَّةِ اللَّذيذةِ النَّافعةِ.

كما قال تعالى: وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا [الإسراء: 70].

ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ.

أي: ذَلِكم الَّذي فعَل هذه الأفعالَ وأنعَمَ عليكم بهذه النِّعَمِ هو اللهُ المُستَحِقُّ للعبادةِ وَحْدَه دونَ غَيرِه، وهو وَحْدَه رَبُّكم الخالِقُ الرَّازِقُ، المالِكُ المدَبِّرُ لجميعِ شؤونِكم.

قال تعالى: يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ [البقرة: 21، 22].

فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ.

أي: فتعالَى وتَقدَّس، وكَثُر خَيرُه وإحسانُه: اللهُ خالقُ ومالكُ ورازقُ ومُدَبِّرُ جميعِ الخَلقِ، الَّذي يُربِّيهم بنِعَمِه وإحسانِه.

هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (65).

هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ.

أي: اللهُ هو الَّذي له الحَياةُ الكامِلةُ المُستَلزِمةُ للصِّفاتِ الكامِلةِ؛ فلم يَسبِقْ حياتَه سُبحانَه عَدَمٌ، ولا يَلحَقُها زَوالٌ؛ فهو أزَلًا وأبَدًا حَيٌّ لا يموتُ، لا مَعبودَ بحَقٍّ إلَّا هو وَحْدَه سُبحانَه، فلا مِثْلَ له، ولا نَظيرَ له.

فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ.

أي: فادعُوا اللهَ وَحْدَه مُخلِصينَ له بلا رياءٍ، غيرَ مُشرِكينَ به شَيئًا من خَلْقِه.

كما قال تعالى: فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ [الزمر: 2].

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

أي: الحمدُ للهِ، خالقِ جميعِ الخَلْقِ ومالكِهم ومُدَبِّرِهم.

سورةُ غافرٍ

الآيات (66-68)

قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ
أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (66) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ
طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُسَمًّى
وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (67) هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ
(68)

غريب الكلمات:

نُطْفَةٍ: النُّطفةُ: الماءُ الصَّافي، ويُعَبَّرُ بها عن ماءِ الرَّجُلِ والمرأةِ، وأصلُ (نطف): يدُلُّ على نَدوةٍ وبَلَلٍ.

عَلَقَةٍ: العَلَقةُ: الدَّمُ الجامِدُ، وأصلُ (علق): يدُلُّ على تعلُّقِ شَيءٍ بشَيءٍ.

لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ: بُلوغُ الأشُدِّ، أي: بُلوغُ مُنْتَهَى الشَّبابِ والقُوَّةِ، أو: اشتِدادُ الجِسْمِ وقوَّتُه، والبُلوغُ والبَلاغُ: الانتِهاءُ إلى أقصَى المَقصدِ والمُنتهَى، والأشُدُّ قيل: جمْعٌ لا واحدَ له، وقيل: مُفردُه شَدٌّ، وأصلُ (بلغ): الوُصولُ إلى الشَّيءِ، وأصلُ (شدد): يدُلُّ على قوَّةٍ في الشَّيءِ.

تفسير الآيات:

قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (66).

قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي.

أي: قُلْ -يا مُحمَّدُ- لِمُشرِكي قَومِك: إنِّي نُهيتُ أن أعبُدَ الآلِهةَ الَّتي تَدْعُونَها مِن دُونِ اللهِ لَمَّا جاءَتْني الآياتُ الواضِحاتُ مِن عندِ رَبِّي دالَّةً على تَوحيدِه وصِفاتِ كَمالِه.

وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ.

أي: وأُمِرْتُ أن أنقادَ وأستَسلِمَ وأذِلَّ وأخضعَ بالطَّاعةِ لخالِقِ كُلِّ شَيءٍ ومالِكِه ومُدَبِّرِه.

هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (67).

هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ.

أي: اللهُ وَحْدَه الَّذي خَلَقَ أباكم آدَمَ -أيُّها النَّاسُ- مِن تُرابٍ، ثمَّ خَلَقَكم مِن مَنِيٍّ، ثمَّ مِن قِطعةِ دَمٍ جامِدةٍ تَعلَقُ برَحِمِ المرأةِ.

كما قالَ اللهُ تباركَ وتعالى: وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ [المؤمنون: 12 – 14].

وعن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: حَدَّثَنا رَسولُ اللهِ – ﷺ – وهو الصَّادِقُ المَصدوقُ، قال: ((إنَّ أحَدَكم يُجمَعُ خَلْقُه في بَطنِ أُمِّه أربَعينَ يومًا، ثمَّ يَكونُ عَلَقةً مِثلَ ذلك، ثمَّ يَكونُ مُضْغةً مِثلَ ذلك، ثمَّ يَبعَثُ اللهُ مَلَكًا فيُؤمَرُ بأربَعِ كَلِماتٍ، ويُقالُ له: اكتُبْ عَمَلَه، ورِزْقَه، وأجَلَه، وشَقيٌّ أو سَعيدٌ، ثمَّ يُنفَخُ فيه الرُّوحُ)).(64)

ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا.

أي: ثمَّ يُخرِجُكم اللهُ مِن بُطونِ أُمَّهاتِكم أطفالًا صِغارًا.

ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ.

أي: ثمَّ لِتَبلُغوا بالتَّدريجِ تَمامَ قُوَّتِكم وعُقولِكم.(65)

---

(64) رواه البخاري (3208) واللَّفظُ له، ومسلم (2643).

(65) ذكر ابنُ عطية (٧/ ٤٥٥) أنه اختُلف في بلوغ الأشد؛ فقيل: ثلاثون.

وقيل: ستة وثلاثون.

وقيل: أربعون.

وقيل: ستة وأربعون.

وقيل: عشرون، وقيل: ثمانية عشر.

ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا.

أي: ثمَّ لِتَكونوا كِبارًا في السِّنِّ ضُعَفاءَ.

كما قال تعالى: اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ [الروم: 54].

وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ.

أي: ومِنكم مَن يموتُ قَبْلَ ذلك.

كما قال تعالى: وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى [الحج: 5].

وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُسَمًّى.

أي: ولِتَبلُغوا زَمَنًا مُحَدَّدًا تَموتونَ فيه، لا تتجاوَزونَه، ولا تَتقَدَّمونَ عليه.

وقيل: خمسة عشر.

وانتقد الثلاثة الأخيرة بقوله: «وهذه الأقوال الأخيرة ضعيفة في الأشد».

ولم يذكر مستندًا.

وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ.

أي: ولِتَعقِلوا حُجَجَ اللهِ وآياتِه، فتُوَحِّدوه وتَعلَموا كَمالَ قُدرتِه وحِكمتِه، وغيرَ ذلك مِن صِفاتِ كَمالِه.

هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (68).

هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ.

أي: اللهُ هو المُنفَرِدُ بالإحياءِ والإماتةِ؛ فلا يَقدِرُ على ذلك أحَدٌ سِواه.

كما قال تعالى: هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ [يونس: 56].

فَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ.

أي: فإذا أراد اللهُ شَيئًا فإنَّما يقولُ له مَرَّةً واحِدةً: كُنْ، فيَكونُ ما أرادَه.

كما قال تعالى: إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ [النحل: 40].

وقال سُبحانَه: إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ [يس: 82].

سورةُ غافِرٍ

الآيات (69–76)

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ (69) الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا
بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (70) إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ (71) فِي
الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ (72) ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ (73) مِنْ دُونِ اللَّهِ
قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُو مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ (74) ذَلِكُمْ بِمَا
كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ (75) ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ
فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (76)

غريب الكلمات:

الْأَغْلَالُ: جَمعُ غُلٍّ، وهو القَيدُ الَّذي يُوضَعُ في العُنُقِ، وأصلُه يدُلُّ على تَدرُّعِ الشَّيءِ وتَوسُّطِه.

الْحَمِيمِ: أي: الماءِ الشَّديدِ الحَرارةِ، وأصلُ (حمم) هنا: يدُلُّ على الحَرارةِ.

يُسْجَرُونَ: أي: يُطرَحونَ فيها فيَكونونَ وَقودًا لها، والسَّجْرُ: مَلءُ النَّارِ بالوَقودِ لِتَقويتِها وتَهييجِها، وأصلُ (سجر) هنا: يدُلُّ على إيقادٍ.

تَمْرَحُونَ: المَرَحُ: شِدَّةُ الفَرَحِ، والتَّوسُّعُ فيه، وأصلُ (مرح): يدُلُّ على مَسَرَّةٍ لا يَكادُ يستقرُّ معها طَرَبًا.

مَثْوَى: أي: مَنزِلُ، ومقامُ، ومَسكنُ، ومأوًى، والثَّواءُ: الإقامةُ معَ الاستِقرارِ، وأصلُ (ثوي): يدُلُّ على الإقامةِ.

تفسير الآيات:

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ (69).

أي: أَلَمْ تَرَ -يا محمَّدُ- إلى مُشرِكي قَومِك الَّذين يُجادِلونَ ويُخاصِمونَ في آياتِ اللهِ؛ فتَعْجَبَ كيف تُصرَفُ عُقولُهم عن الحَقِّ إلى الباطِلِ؟![66]

الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (70).

الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا.

أي: وهم الَّذين كذَّبوا بالقُرآنِ، وكَذَّبوا بالَّذي أُرسِلَ به رُسُلُ اللهِ مِنَ الهدَى والبيانِ؛ كإخلاصِ العبادةِ لِلَّهِ، والإقرارِ بالبعثِ بعدَ المماتِ، والبَراءةِ ممَّا يُعبَدُ مِن دونِ اللهِ، إلى غيرِ ذلك.

(66) اختُلف في الذين عُنوا بهذه الآية على قولين: الأول: أنهم أهل القدر.

الثاني: أنهم أهل الشرك.

ورجَّح ابنُ جرير (٢٠/ ٣٦٢) مستندًا إلى السياق القول الثاني الذي قاله ابن زيد، ومقاتل، فقال: «والصواب من القول في ذلك ما قاله ابن زيد؛ وقد بيّن الله حقيقة ذلك بقوله: ﴿الذين كذبوا بالكتاب وبما أرسلنا به رسلنا﴾».

وكذا رجَّحه ابنُ عطية (٧/ ٤٥٦) مستندًا إلى السياق، فقال: «ظاهر الآية أنها في الكفار المجادلين في رسالة محمد - ﷺ - والكتاب الذي جاء به، بدليل قوله: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ﴾، وهذا قول ابن زيد والجمهور من المفسرين».

وعلَّق على القول الثاني بقوله: «ويلزم قائلي هذه المقالة أن يجعلوا قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا﴾ الآية...

كلامًا مقطوعًا مستأنفًا في الكفار».

وذكر أنهم رووا حديثًا في نحو ما قالوا من أنّهم أهل القدر.

فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ.

أي: فسوفَ يَعلَمُون عاقِبةَ أمْرِهم.

كما قال الله تعالى: ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ [الحجر: 3].

وقال الله سُبحانَه وتعالى: الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ [الحجر: 96].

إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ (71).

أي: فسوفَ يَعلَمونَ ذلك حينَ تُجعَلُ الأغلالُ في أعناقِهم والسَّلاسِلُ، فيُجَرُّونَ إهانةً وتَعذيبًا لهم!

كما قال تعالى: خُذُوهُ فَغُلُّوهُ * ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ * ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ [الحاقة: 30 – 32].

وقال سُبحانَه: إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَ وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا [الإنسان: 4].

فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ (72).

فِي الْحَمِيمِ.

أي: يُسحَبونَ في الماءِ الحَميمِ الَّذي اشتَدَّ غَلَيانُه، وانتَهى حَرُّه.

كما قال تعالى: ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ * ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ [الصافات: 67، 68].

وقال سُبحانَه: هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ * يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ [الرحمن: 43، 44].

ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ.

أي: ثُمَّ يُطرَحونَ في النَّارِ فيَكونونَ وَقودًا لها، فتُحمَى بهم.

كما قال تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ [التحريم: 6].

ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ * مِنْ دُونِ اللَّهِ....

أي: ثمَّ يُقالُ لهم: أين آلهتُكم الَّتي كُنتُم تَجعلونَها شُرَكاءَ للهِ في عِبادتِه؛ لِتُنقِذَكم اليَومَ من العَذابِ؟!

... قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُو مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ (74).

قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا.

أي: قالوا: غابُوا عنَّا، فترَكونا في العَذابِ، ولم يَنفَعونا بشَيءٍ.

بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُو مِنْ قَبْلُ شَيْئًا.

أي: بل لم نَكُنْ أصلًا نَعبُدُ في الدُّنيا أيَّ شَيءٍ من دونِ اللهِ!

كما قال تعالى: وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ * ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ * انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ [الأنعام: 22 – 24].

كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ.

أي: كهذا الضَّلالِ يُضِلُّ اللهُ الكافِرينَ؛ بسَبَبِ كُفرِهم.

ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ (75).

ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ.

أي: يُقالُ لهم: ذَلِكم بسَبَبِ أنَّكم كُنتُم في الدُّنيا تَفرَحون بالباطِلِ.

وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ.

أي: وبِسَبَبِ أنَّكم كُنتُم في الدُّنيا في أشَرٍ وبَطَرٍ واختيالٍ وزَهْوٍ بالباطِلِ.

كما قال تعالى: وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا [الإسراء: 37].

وقال سُبحانَه: وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ [لقمان: 18].

ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (76).

ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا.

أي: يُقالُ لهم يومَ القيامةِ: ادخُلوا أبوابَ جَهنَّمَ السَّبعةَ ماكِثِينَ فيها أبدًا.

قال تعالى: وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ * لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ [الحجر: 43، 44].

فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ.

أي: فبِئْسَ مَنزِلُ الَّذين تكبَّروا عن الحَقِّ: جَهنَّمُ يُقيمونَ فيها إقامةً دائِمةً!

سورةُ غافرٍ

الآيات (77–81)

فاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (77)
وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ
لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ
(78) اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (79) وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ
وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ (80) وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ
آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ (81)

غريب الكلمات:

الْمُبْطِلُونَ: أي: الذين جادَلوا بالباطِلِ، والباطِلُ: نَقيضُ الحَقِّ، وهو ما لا ثَباتَ له عِندَ الفَحصِ عنه، وأصلُ (بطل): يدُلُّ على ذَهابِ الشَّيءِ، وقِلَّةِ مُكثِه.

الْفُلْكِ: السُّفنِ، وواحِدُه وجَمْعُه بلفظٍ واحدٍ، وأصلُ الفلكِ: الاستدارةُ في الشَّيءِ، ولعلَّ السُّفنَ سُمِّيت فُلكًا؛ لأنَّها تُدارُ في الماءِ.

تفسير الآيات:

فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ

(77).

فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ.

أي: فاصبِرْ -يا مُحَمَّدُ- على أذى الكُفَّارِ؛ فإنَّ اللهَ مُنجِزٌ -لا مَحالةَ- ما وعَدَك به مِن عُقوبةِ الكافِرينَ، ونَصْرِ المؤمنينَ في الدُّنيا والآخِرةِ.

فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ.

أي: فإنْ نُرِكَ بَعضَ العَذابِ الذي نَعِدُ به الكُفَّارَ في الدُّنيا، ونُعجِّلْ به في حياتِك؛ أو نُمِتْك قَبْلَ أنْ يَحُلَّ بهم ذلك: فإلينا مَصيرُهم وعَلَيْنا حِسابُهم، فيَنالونَ حِينَها نَصيبَهم مِن عذابِ الآخِرةِ.

كما قال تعالَى: وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ [يونس: 46].

وقال عزَّ وجلَّ: وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ [الرعد: 40].

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ (78).

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ.

أي: ولقدْ أرسَلْنا –يا مُحَمَّدُ– إلى الأُمَمِ الماضيةِ رُسُلًا مِن قَبْلِك يَدْعونَهم إلى اللهِ تعالَى.

مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ.

أي: مِن أُولئك الرُّسُلِ مَن أَنْبأناكَ بقَصَصِهم وأخْبارِهم، ومِنهم مَن لم نُنَبِّئْك بقَصَصِهم ولا أخْبارِهم.

كما قال تعالَى: إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا * وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا [النساء: 163، 164].

وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ.

أي: وليس لأيِّ رَسولٍ مِن رُسُلِ اللهِ أنْ يَأتِيَ النَّاسَ بآيةٍ تَدُلُّ على صِدقِه وصِحَّةِ ما جاء به مِن الحَقِّ إلَّا بأمرِ اللهِ تعالَى ومَشيئتِه.

فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ.

أي فإذا جاء الوَقتُ المحَدَّدُ للفَصلِ بيْنَ الرُّسُلِ وأقوامِهم، قَضى اللهُ بيْنهم بالعَدلِ.(67)

وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ.

أي: وهَلَك عندَ ذلك المُشرِكونَ المُتَّبِعونَ للباطِلِ؛ فما رَبِحَت تجارتُهم.

اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (79).

أي: اللهُ المُستَحِقُّ وَحْدَه للعِبادةِ هو الذي خَلَق لكم الأنعامَ؛ فمِنها تَركَبونَ، ومنها تأكُلونَ.

وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ (80).

وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ.

أي: ولكمْ في الأنعامِ مَنافِعُ؛ فتَتَّخِذونَ منها لِباسًا وأثاثًا، وتَنتَفِعونَ بنَسْلِها والحِراثةِ بها... وغَيرِ ذلك مِنَ المنافِعِ.

---

(67) ذكر ابنُ عطية أن قوله: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ معناه: إذا أراد الله إرسال رسول وبعثة نبي قضى ذلك وأنفذه بالحق، وخسر كل مبطل، وحصل على فساد آخرته.

ثم أورد احتمالًا آخر، فقال: «وتحتمل الآية معنى آخر، وهو أن يريد بـ ﴿أَمْرُ اللَّهِ﴾: القيامة؛ فتكون الآية توعُّدًا لهم بالآخرة».

كما قال تعالَى: وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ * وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ [النحل: 5 – 7].

وقال سُبحانَه: وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ [المؤمنون: 21].

وقال عزَّ وجلَّ: وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ [يس: 73].

وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ.

أي: ولِتُسافِروا عليها إلى أماكِنَ بَعيدةٍ مِمَّا في صُدورِكم حاجةٌ للوُصولِ إليها.

كما قال تعالَى: وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ [النحل: 7].

وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ.

أي: وعلَى الأنعامِ في البَرِّ، وعلى السُّفُنِ في البَحرِ تَركَبونَ، وتَحمِلونَ مَتاعَكم.

كما قال سُبحانَه: وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ * لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ [الزخرف: 12، 13].

وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ (81).

وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ.

أي: ويُريكم اللهُ آياتِه الدَّالَّةَ على وَحدانيَّتِه وقُدرتِه وغيرِ ذلك مِن صِفاتِه، فيُظهِرُها ويُجلِّيها لكم.

فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ.

أي: فأيَّ آياتِ اللهِ تَقدِرونَ على إنكارِها وعَدَمِ الاعترافِ بها، حتى يحِقَّ لكم اتِّباعُ الباطِلِ أو المجادَلةُ في الحَقِّ مِن شأنِ التَّوحيدِ أو البَعثِ أو غيرِهما؟! فقدْ تقَرَّر عِندكم أنَّ جَميعَ الآياتِ مِنَ اللهِ تعالى؛ فلمْ يَبْقَ مَجالٌ لإنكارِها أو الإعراضِ عنها إلَّا أنْ تُعانِدوا وتُكابِروا!

سورةُ غافِرٍ

الآيات (82–85)

أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ
قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (82) فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ
بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (83) فَلَمَّا رَأَوْا
بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ (84) فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا
بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ (85)

غريب الكلمات:

عَاقِبَةُ: عاقبةُ كلِّ شَيءٍ: آخِرُه، أو: ما يُؤدِّي إليه السَّببُ المتقدِّمُ، والعاقبةُ تَختصُّ بالثَّوابِ إذا أُطْلِقتْ، وقدْ تُستعمَلُ في العقوبةِ إذا أُضيفَتْ، وأصلُ (عقب): تأخيرُ شَيءٍ، وإتيانُه بعْدَ غيرِه.

سُنَّةَ اللَّهِ: السُّنَّةُ: هي الطَّريقةُ المَسلوكةُ والمِنهاجُ المتَّبَعُ، وأصلُ (سنن): يدُلُّ على جَرَيانِ الشَّيءِ، واطِّرادِه في سُهولةٍ.

خَلَتْ: أي: مَضَتْ وذَهبَتْ، مِن خَلا الزَّمانُ: إذا مَضَى وذهَبَ.

تفسير الآيات:

أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (82).

أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ.

أي: أفَلَم يَسِرْ أولئك المُشرِكونَ مِن قومِك -يا مُحَمَّدُ- في الأرضِ، فيَنظُروا بأعيُنِهم، ويتفكَّروا بقُلوبِهم: كيف كانتْ خاتِمةُ أمرِ الكُفَّارِ الذين مِن قَبْلِهم، فيَعتَبِروا لِرُؤيتِهم آثارَ إهلاكِ اللهِ لهم؛ لِتَكذيبِهم رُسُلَهم؟!

كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ.

أي: كان كُفَّارُ الأُمَمِ السَّابِقةِ الذين أهلَكَهم اللهُ أكثَرَ عَددًا مِن كُفَّارِ قُرَيشٍ.

وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ.

أي: وكانوا أشَدَّ قُوَّةً مِنهم، وأعظَمَ آثارًا في الأرضِ.

فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ.

أي: فما دَفَع عنهم العَذابَ كَثرةُ عَدَدِهم، ولا شِدَّةُ قُوَّتِهم، ولا عِظَمُ آثارِهم.

فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (83).

فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ.

أي: فلَمَّا جاءتْ أولئك الأُمَمَ الماضيةَ رُسُلُهم بآياتِ اللهِ الواضِحاتِ، والبراهينِ القاطِعاتِ، لم يُؤمِنوا بها، وفَرِح هؤلاء الكافِرونَ بما عِندَهم مِنَ العِلمِ، ورضُوا به.(68)

وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ.

أي: ونَزَل وأحاطَ بالكافِرينَ عَذابُ اللهِ الذي كانوا يَسخَرونَ منه ويُكَذِّبون بوُقوعِه.

فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ (84).

فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ.

أي: فلَمَّا رأَوا عَذابَ اللهِ نازِلًا بهم قالوا: آمَنَّا بوَحدانيَّةِ اللهِ، فلا معبودَ بحَقٍّ سِواه.

---

(68) الضمير في قوله: ﴿فرحوا﴾ عائد على الأمم المذكورين، وهو ما ذكره ابنُ عطية (٧/ ٤٦٠)، وساق قولًا غيره بعودة الضمير على الرسل، وعلَّق عليه بقوله: «وفي هذا التأويل حذفٌ، تقديره: كذبوهم، ففرحوا -أي: الرسل- بما عندهم من العلم بالله، والثقة به، وبأنه سينصرهم».

وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ.

أي: وكفَرْنا بالآلِهةِ التي كُنَّا نَعبُدُها، وتبرَّأْنا منها.

كما قال تعالَى: وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ * فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ [الأعراف: 4، 5].

وقال سُبحانَه: فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ * لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ * قَالُوا يَاوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ * فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ [الأنبياء: 12 – 15].

فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ (85).

فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا.

أي: فلمْ يَنفَعْهم إيمانُهم بتَوحيدِ اللهِ حِينَ رأَوْا عذابَه نازِلًا بهم!

كما قال تعالَى: هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ [الأنعام: 158].

وقال عزَّ وجلَّ: وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا [النساء: 18].

سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ.

أي: سَنَّ اللهُ تعالى أنَّه لا يَقبَلُ تَوبةَ الكافِرينَ حينَ نُزولِ العَذابِ، ولا يَنفَعُهم إيمانُهم في تِلك الحالِ، وقدْ مَضَت هذه السُّنةُ والطريقةُ في عِبادِه.

وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ.

أي: وهلَكَ عِندَ مَجيءِ عَذابِ اللهِ الكافِرونَ بربِّهم، المُشرِكونَ في عِبادتِه، فما رَبِحَت تجارتُهم.

تمَّ بحمدِ الله تعالى المجلَّدُ الثَّلاثونَ

ويَليه المجلَّدُ الحادي والثَّلاثونَ، وأوَّله: تفسير سُورة فُصِّلَت

الفهرس

"هَذِهِ مُسْوَدَّةُ نُسْخَةٍ إِلِكْتْرُونِيَّةٍ، جَمِيعُ حُقُوقِهَا مَحْفُوظَةٌ لِلْمُؤَلّفِ.

لَا يُسْمَحُ بِنَشْرِهَا أَوْ تَدَاوُلِهَا إِلَّا بِإِذْنٍ كِتَابِيّ صَرِيحٍ مِنَ الْمُؤَلّفِ."

نسخة إلكترونية

المغني في التفسير

المُحرّرُ الجامِعُ لِتفاسِيرِ السَّلَفِ

[تَهْذِيبُ التَّفْسِيرِ المُحَرَّرِ لِلدُّرَرِ السَّنِيَّةِ]

[مُطَرَّزًا بِحَاشِيَةٍ مِنْ تَحْرِيرَاتٍ وَتَرْجِيحَاتٍ وَتَعْلِيقَاتِ عُيُونِ تَفَاسِيرِ المُحَقِّقِينَ فِي التَّفْسِيرِ:

{ابْنِ جَرِيرٍ، وَابْنِ عَطِيَّةَ، وَابْنِ تَيْمِيَّةَ، وَابْنِ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ، وَابْنِ كَثِيرٍ، رَحِمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى}

كَتَبَهُ وَاعْتَنَى بِهِ

د/ هَانِي بْن عَبْده

د/ آلَاء رِضَا